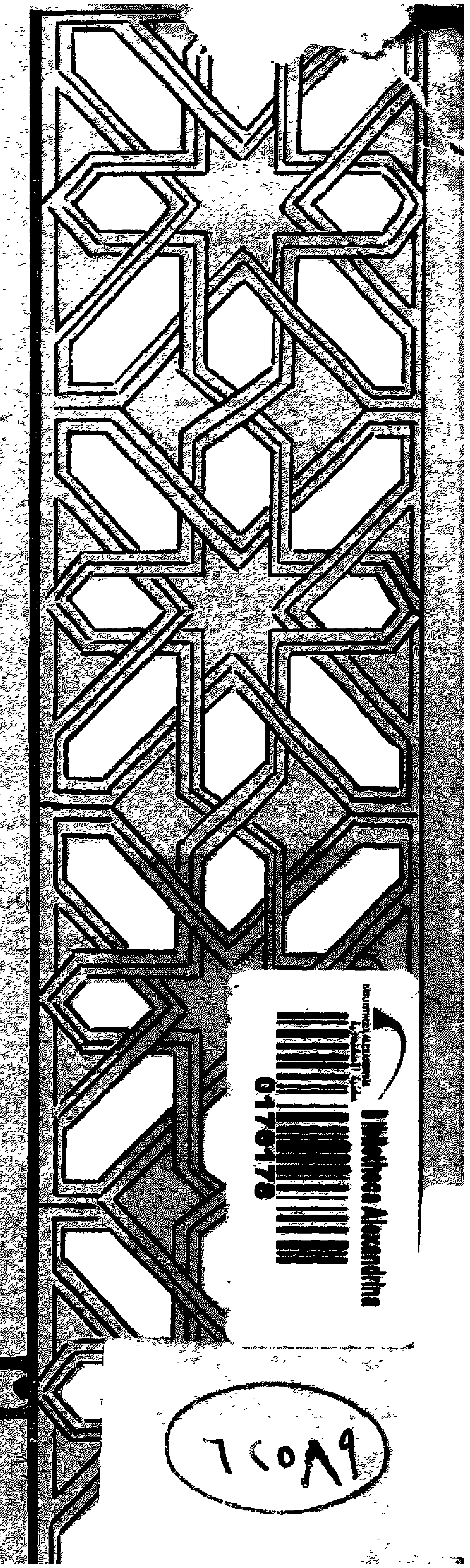
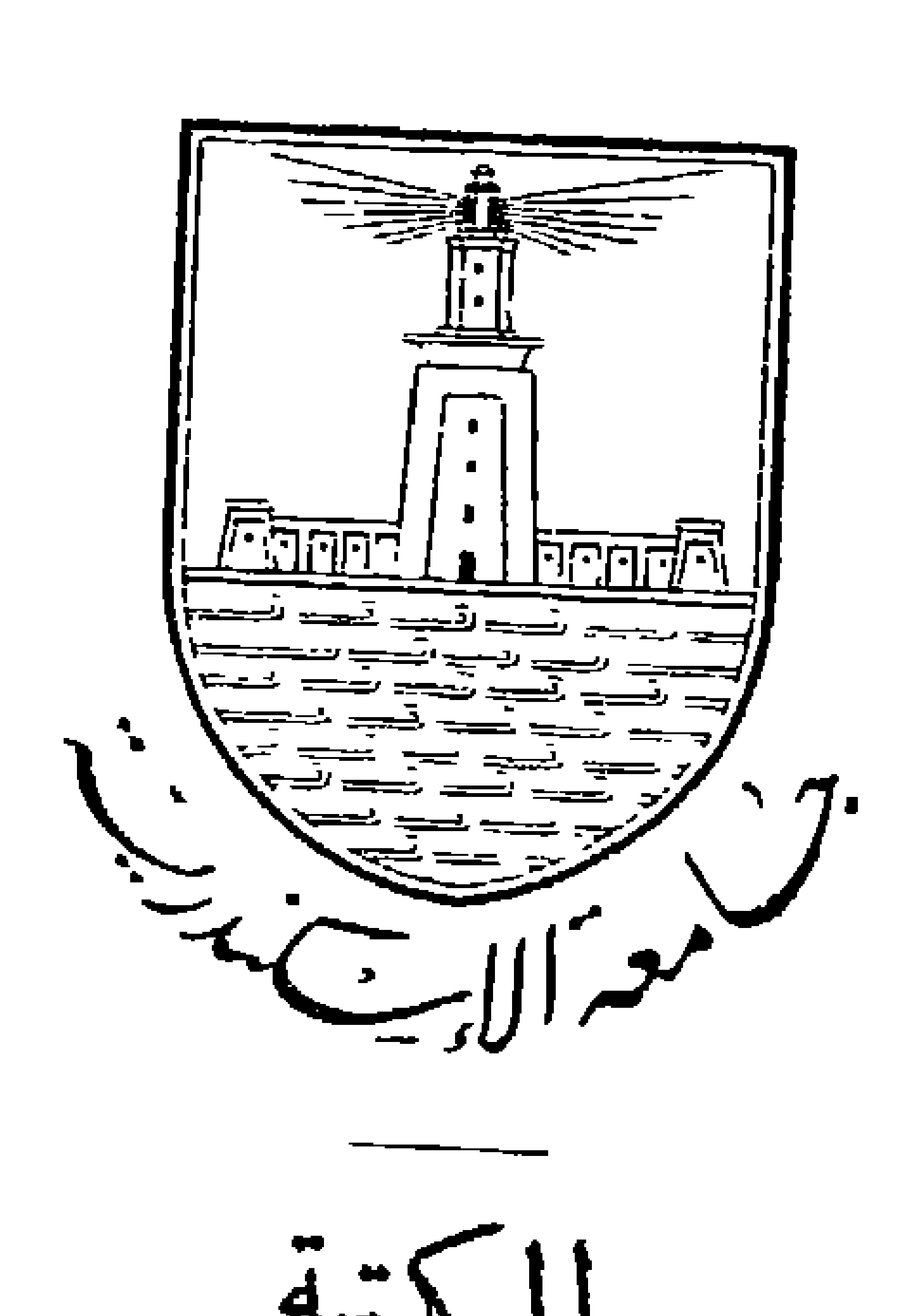
الحصاد

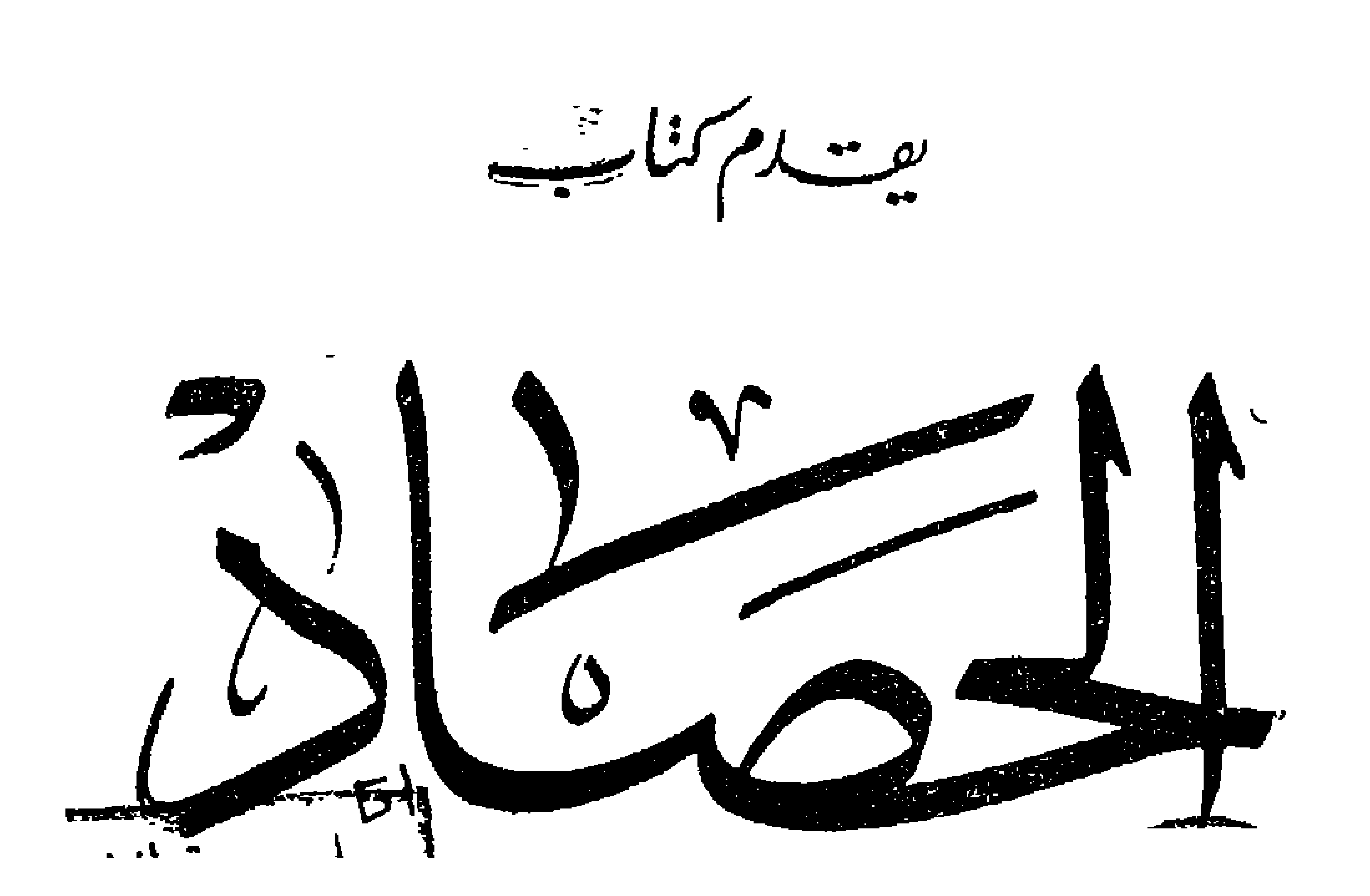
إيريس حبيب المصري




جامعة الإسكندرية

القس مرقس شنوده
راعى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بطنطا

يقدم كتاب



الحصاد

بقلم

الأستاذة إيريس حبيب المصرى

الجزء الأول

١٦٨٢ ش — ١٩٦٥ م

المطبعة التجارية الحديثة
٣٠ شارع الشيخ قمر ـ السكاكينى



كلمة الناشر



يسرنى أن أقدم لأبناء كنيستنا المحبوبة هذا الكتاب القيم الذى سطره يراع الكاتبة القديرة الأستاذة إيريس حبيب المصرى ، التى لا تحتاج إلى تعريف فهى البطلة الأرثوذكسية المجاهدة فى سبيل خدمة كنيستها ووطنها . والمضحية بوقتها ومالها فى خدمة الآخرين ، والتى تغذى معظم مجلاتنا الكنسية بموضوعاتها الشيقة التى يتهافت على قراءتها الجميع لما لها من مكانة فى القلوب ، بارك الله فى مجهوداتها وكللها بالنجاح.

وقد اخترت فى هذا الجزء الأول واحد وعشرون مقالا جمعتها ليتألف منها « الحصاد » .

وبإذن الله ستليه الأجزاء الأخرى .

والله نسأل أن يجعل هذا الكتاب نوراً وهداية للنفوس ، لتتغذى من باكورة الحصاد جدداً وعتقاء ؟

الناشر : القس مرقس شنوده

الإهداء



إلى روح المجاهد الذى لم يكل من الجهاد طيلة حياته ، المغفور له الأستاذ حبيب حنين المصرى ، ذلك الذى أدى لكنيسته ووطنه خدمات جليلة باقية تذكر له بالشكر والعرفان. وبعض هذه الخدمات عنايته الخاصة بتربية أولاده.

ومن آثار تربيته هذه الثمرات اليانعة التى هى غرس فضله ورعايته .

فتقبل منا أيها البطل هذا « الحصاد » تحية عاطرة وتخليداً لذكراك المتغلغلة فى القلوب التى لا تنسى والسلام ؟

الناشر

القس مرقس شنودة



إلى روح فقيد الشباب ونابغة الطب المغفور له

الدكتور أمين حبيب المصرى

الذى ترك ذكرى عاطرة ، والذى عز نعيه على الجميع

فتقبل تحياتنا والسلام ؟

فى هذا الكتاب

صفحة

الأم فى مصر

إن مصر هى أم الحضارة. هذه حقيقة وضحت وضح النهار فى جميع العالم. ويتساءل هنرى برستد المستشرق الأمريكى عن السبب الذى جعل الحضارة المصرية تستمر آلافاً من السنين بينما لا تستمر الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية غير مئات قصيرة، ثم يجيب بنفسه على تساؤله هذا بقوله ان الحياة العائلية فى مصر كانت مستقرة فكانت الأسرة متماسكة متساندة لذلك قامت الحضارة على أساس ثابت هو الوحدة العائلية. وتبدو هذه الحقيقة فى كل الرسوم التى خلفتها مصر الفرعونية إذ يظهر الرجل وزوجته وأولاده معاً فى الحقل، وفى القوارب التى تتهادى فوق مياه النيل، وفى المعبد. والصور تبدو فيها الألفة والتعاون. ولما كانت العائلة هى المجتمع مصغراً، كان المجتمع ـ الذى هو مجموعة من العائلات المتآلفة ـ مجتمعاً متماسكا قوياً. ولهذا السبب ظلت الحضارة المصرية قائمة مستمرة آلافاً من السنين، لأنها حضارة شعب متماسك. وهذه الصبغة المصرية لم تكن موجودة فى الشعبين الاغريقى والرومانى، مما جعل حضارة هاتين الدولتين تنهار بعد مدة قصيرة، إن هى قيست بطول المدة التى دامتها حضارة مصر.

هذه شهادة يعلنها المستشرق الأمريكى برستد فى كتابه: «فجر الضمير» الذى يتتبع فيه تطور الفكر الروحى لدى المصريين ويخرج من بحثه بنتيجة خليقة بأن تجعلنا نعتز بمصريتنا أكثر فأكثر لأنه يقول إن الضمير الانسانى انبثق فجره فى مصر.

ولكن لكى يقوم اعتزازنا على المعرفة يجدر بنا أن نتأمل تاريخنا عن قرب لنتبين الأسس التى قامت عليها الأسرة المصرية.

إن الشعب الذى يدرك أهمية الأسرة شعب يدرك مكانة الأم من هذه

الأسرة. والشعب المصري منذ أقدم عصوره عرف مكانة الأم ومنحها ولاءه. ذلك أن الأساطير تروى لنا قصة الآلهة ايزيس الزوجة الوفية والأم المتفانية. فلقد احتال إله الشر «ست» على زوجها أوزوريس وقتله ثم مزق جسده إلى أربع عشرة قطعة دفن كل قطعة منها في إحدى مديريات القطر المصري. فدفع الوفاء بايزيس إلى أن تبحث عن أشلاء زوجها فتجمعها كلها وتنوح نواحاً يعيد الحياة إلى هذا الجسد الممزق، ومن ثم يتحول أوزوريس إلى ملك الأبرار في العالم الآخر، وبالتالي ينشأ لدى المصريين الإيمان بحياة الخلود فيها يرتع صانعو الخير في حقول أوزوريس.

على أن الوفاء للزوج لم يكن الميزة الوحيدة التي تميزت بها ايزيس إذ قد جمعت إليها ميزة الأم المتفانية المدركة لواجبها. لأنها ولدت ابنها هورس بعد أن ترك أبوه هـذا العالم وتملك على العالم غير المرئي. فأخفته في طفولته وحرصت عليه من بطش «ست». ثم أعلمته بكل ما جرى لأبيه ونفخت فيه العزيمة والقوة حتى إذا ما بلغ أشده خرج لمقاتلة ست ليس لينتقم لأبيه فحسب بل ليخلص مصره الحبيبة من سلطانه الغاشم. وكانت موقعة حاسمة انتصر فيها هورس انتصاراً مبيناً وطرد إله الشر من وادي النيل الخصيب إلى الصحراء القاحلة الجرداء.

ولقد امتلأ المصريون إعجاباً بايزيس فعبدوها. وكانوا يصورونها تارة وهي تبكي زوجها وطوراً وهي ترضع ابنها هورس. بل ان صورها مع هورس متعددة متنوعة: فهو يجلس على ركبتيها، وهو يمسك بيدها، وهو يقف أمامها وهي تحنو عليه وتلقنه الشجاعة والاقدام، وهكذا صور لنا أجدادنا كل النواحي التي تتجلى فيها الأمومة المثلى المدركة لواجبها كما أعلنوا لنا أن هذه الأمومة ليست موضع إكرامهم فحسب بل هي موضع عبادتهم أيضاً.

ولأن مصر عبدت الأم فقد أكرمت المرأة على مدى العصور ، ومن هنا بزغ لدى المصريين الإدراك الصحيح لمكانة الأسرة فى المجتمع وبالتالى صوروا لنا تلك الصور الرائعة عن الحياة العائلية .

والإدراك الروحى لدى الأمم لا يموت رغم الأحداث السياسية ورغم المظاهر السطحية التى تطغى أحياناً على الأمم . بل هو يظل فى أعماق النفوس يسطع نوره أحياناً ثم تغطيه الأحداث أحياناً أخرى ، كنور الشمس الذى تغشاه الغيوم فتخفيه عن الأنظار ولكنه لا يلبث أن يسطع فى بهاء - وكأنما تزايد بهاؤه بعد إختفائه قليلا .

هكذا الحال فيما يتعلق بإدراك المصريين الروحى لمكانة الأم ولأهمية العائلة . ويتجلى هذا الإدراك فى سناه خلال التقليد الكنسى الذى كرس شهر كيهك لتمجيد السيدة العذراء أم النور . فى هذا الشهر تقام الصلوات المعروفة باسم السبعة وأربعة وهذه التسمية مرجعها إلى أن هذه الصلوات تشمل سبع ثيئوتوكيات وأربعة هوسات ، والثيئوتوكية كلمة قبطية معناها تمجيد أم الله وهى مأخوذة من كلمة « ثيئوتوكس » (أى أم الله) التى كان أول من استعملها الأنبا ألكسندروس البابا الاسكندرى الـ ١٩ وأيدها تلميذه العظيم الأنبا أثناسيوس الرسولى البابا الاسكندرى الـ ٢٠ . وحين قام الأنبا كيرلس عمود الدين البابا الاسكندرى الـ ٢٤ للدفاع عن الإيمان الأرثوذكسى ضد البدعة النسطورية ، أكد إيمان الكنيسة بأمومة السيدة العذراء للمسيح وجعل من كلمة « ثيئوتوكس » اللواء الذى انضوى تحته الأرثوذكسيون - ولكى يبين الأنبا كيرلس أهمية هذا الإيمان وضع مقدمة لدستور الإيمان الذى مطلعه « بالحقيقة نؤمن بإله واحد . . . » والمقدمة التى وضعها الأنبا كيرلس لهذا الدستور هى « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء

القديسة والدة الإله لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله ، أتى وخلص نفوسنا ، المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل ، إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا، نكرز ونبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد نسجد له ونمجده . يارب ارحم يارب ارحم يارب بارك آمين » . وهذه الصلوات كلها تشير إلى أن مكانة الأم ظلت عند القبط كما كانت لدى أجدادهم .

ولنرجع الآن إلى تلك الصلوات التى تقال فى ليالى آحاد شهر كيهك وهى السبعة وأربعة . فقد عرفنا ما هى السبعة ثيئوتوكيات أما كلمة هوس فهى كلمة قبطية معناها تسبحة . والتسبحات الأربع التى تقال هى : تسبحة موسى، مزمور ١٣٥ (حسب النسخة القبطية و ١٣٦ حسب النسخة العبرانية) ، وتسبحة الثلاثة فتية ، مزامير ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ - ولما كانت التماجيد الخاصة بالسيدة العذراء سبعة والتسبحات التى تتخللها أربعاً ، استطعنا أن نقول وبحق أن صلوات السبعة وأربعة مكرسة للسيدة العذراء ، وبالتالى كان شهر كيهك مكرساً لها ، واستطعنا أيضاً أن نسميه بالشهر المريمى . وهكذا نرى أن الكنيسة القبطية كانت أول كنيسة أعلنت ولاءها للسيدة العذراء وأكرمتها وكرست لها صلوات خاصة فى مناسبات خاصة .

ولئن كانت العبادة المصرية المظهر الأعلى لتطلع الشعب واتجاهاته فهى أيضاً مصدر الوحى له . ومما لا شك فيه أن المرأة المصرية قد استوحت هذه المثل فداومت على حمل الشعلة من جيل إلى جيل . إذ لولا أمانتها فى حمل هذه الشعلة ما ظل الإيمان مشتعلا فى القلوب إلى اليوم .

ولقد سجل التاريخ سير المعروفين من الزعماء والزعيمات ، ولكن يجب

ألا يغيب عن بالنا أن الزعيم (أو الزعيمة) لم يقم بمحض الصدفة ولا استطاع أن يقود شعبه اعتباطا بل انه جاء نتيجة لعوامل عديدة منها استعداد الشعب نفسه. فلو لم يكن الشعب القبطى فى عصور الاضطهاد متقد الإيمان مشتعل الفؤاد، لما برز فى صفوفه الشهداء والمعترفون، ولو لم تكن المصرية متأصلة فى قلوب القبط متغلغلة فى أعماق نفوسهم ما استطاع آباؤهم أن يقفوا فى وجه الأباطرة البيزنطيين مع أن هؤلاء الأباطرة كانوا مسيحيين. ولكى يكون الشعب متقد الإيمان صميم الوطنية فلابد من أن تكون أمهات هذا الشعب قد نفخن فيه هذا الإيمان المشتعل وهذه الوطنية الصادقة. فلئن يكن التاريخ قد اكتفى بسرد سير البارزين من الرجال والنساء إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن العاديين من الناس قد جاهدوا وعملوا - فهم الجنود المجهولون الذين كسبوا المعارك بجهادهم رغم كونهم مجهولين. فالأم المصرية العادية بتعبها اليومى وبسهرها على تربية أولادها ورعايتهم هى - من غير شك - الجندى المجهول الذى بنى فى صمت وثبات صرح هذا الوطن الحبيب.

فإلى الأم المصرية - على مر الدهور - ندين بولائنا، وننحنى إجلالا لها معترفين بأن هذا الولاء هو حق، وأن مصرنا المحبوبة كانت أول أمة اعترفت بهذا الحق وأعلنته على الملأ.



السيدات والكنيسة

كلما تعاقبت الفصول برز موضوع الأزياء بشكل واضح . وهذا الموضوع - وإن كان قديماً - إلا أنه لا يزال جديداً لم يُضعف الزمن من جدته . بل إن تباين الآراء فيه يزيده أهمية . وهذا التباين مرجعه إلى اختلاف الأمزجة والاستعداد الشخصى ووجهة النظر .

ولقد فكرت ملياً فى هذا الموضوع قبل خوضه لأنه موضوع شائك . ولكنى رأيت - بعد هذا التفكير - أنه قد آن الأوان لأن تتحدث سيدة إلى السيدات فى شأن الملابس بدلا من أن تترك هذا الموضوع للرجال . ولقد تعرض الرجال له مراراً وتكراراً إلى حد الملل . وللبعض منهم أسلوب فى الحديث ينفر السامعين ويؤدى إلى نتيجة عكسية . إذن فلنتحدث معاً فى أمر الأزياء لعلنا نصل إلى نتيجة نرتاح اليها من أعماق نفوسنا .

▲▲▲

ليس من شك فى أن الإنسان يميل بطبعه إلى التنويع . والمولى جل شأنه قد اختط لنا خطة التنويع فى كل ما أبدع . وليس التنويع قاصراً على تباين المخلوقات فحسب بل هو واضح فى الجنس الواحد . وهذا التنويع يضفى على الحياة رونقاً وجاذبية . فلو كانت المخلوقات كلها من نوع واحد ، أو لو كان الجنس البشرى كله من شكل واحد لكانت الحياة مملة - خصوصاً وأن المبادىء العليا والقواعد المثلى ثابتة لا تنويع فيها ولا يعتريها تغيير . وخير مثل لهذا الثبات الممتزج بالتغير الشجرة : فجذعها ثابت لا يتغير ولا يتبدل ولكن فروعها وأوراقها وأزهارها تتساقط وتطلع وتتخذ كل مرة أشكالا جديدة .

ومن هذا المبدأ المتناقض ـ مبدأ الثبات الممتزج بالتغيير ـ وجب أن يرسم الناس الخطة التي يسيرون عليها ـ فيحافظون على المبادىء والمثل العليا وينوعون في التعبير عنها .

ولو اتخذنا هذا المبدأ ـ مبدأ الثبات الممتزج بالتغيير ـ قاعدة نبني عليها سلوكنا في أمر الأزياء لقلنا إن الناحية الثابتة فيه هو الشخصية الإنسانية وما يجب أن تحاط به من كرامة ، ثم ما يجب على هذه الشخصية من تقدير لمسئولياتها وحقوقها ، أما التنويع هنا فهو الظهور في شتى المناسبات بالمظهر الذي يتفق وهذه المناسبة . وحينما نفكر في الناحية الثانية ـ ناحية الكرامة والمسئولية والحقوق ـ نسمع بولس الرسول يقول لنا بأننا هياكل لروح الله القدوس . الساكن فينا . وأظن أننا متفقون (جميعاً) على أن هيكل الله يجب أن يكون متيناً جميلا يشعر الداخل فيه بانتعاش روحي . هكذا الحال معنا ـ يجب أن نعنى بسلامة أجسامنا وسلامة نفوسنا لتكون قوية سليمة جديرة بسكنى الروح القدس. فإذا ما عنينا بتهذيب شخصيتنا ، وهيأناها صحياً وخلقياً وروحياً ، استطعنا إذ ذاك أن نزن موضوع التجمل والتزين بميزانه الدقيق . صحيح أن الإنسان الأول لجأ بادىء ذي بدء إلى اللابس كي يستر جسمه وكي يقيه غوائل الحر والبرد . ولكن الإنسان في القرن العشرين لا يلبس للستر والوقاية فحسب بل هو يبغي التجمل أيضاً ، بل إن البعض يهدف إلى جعل ملابسه وسيلة لجذب الأنظار واستثارة شتى الانفعالات. والتجمل ليس شراً في حد ذاته ولكنه ينقلب شراً حين يتحول إلى مغالاة وحين يهدف إلى هذه الاستثارة . ولاشك في أن التجمل ميل طبيعي إذ أننا نرى أن الله جل اسمه قد جمل النبات والحيوان والإنسان بما حباهم إياه من ألوان متناسقة وأشكال عجيبة وفطنة وذكاء . إذن فالتجمل لابد أن يكون لحكمة عالية ، وما دام

كذلك وجب علينا أن نفكر فيه كى ندرك حدوده . وهذه الحدود هى من غير شك حدود الكرامة وتقدير المسئولية . والنتيجة التى لا مناص منها تبعاً لهذا المنطق هى أن احترامنا لأنفسنا يجب أن يقترن باحترامنا لغيرنا، وما دمنا نحترم أنفسنا ونحترم غيرنا فلابد أن ندرك أن المغالاة فى التجمل هى اعتداء على هذه الكرامة . فالمطلوب من كل واحدة منا هو إحاطة التجمل بسياج من الكرامة وهذا معناه أن تدرك أن ما تلبسه فى الكنيسة يجب أن يحمل معنى التقدير لهيكل الله وقدسيته، فلا تلبس إلا ما يتفق وهذه القدسية . وليس هذا فحسب - بل عليها أن تدرك أن الحاضرين فى الكنيسة إنما جاءوا ليصلوا وليرتفعوا بأرواحهم نحو عرش النعمة . وكل شخص فى الكنيسة يستطيع أن يكون أداة لمعاونة الآخرين على السمو أو لدفعهم إلى السقوط. فالشخص الخاشع المحتشم قوة دافعة على الخشوع والإحتشام ، ومن هنا تتضح لنا أهمية مظهرنا فى الكنيسة - أهو المظهر الذى يهيء أمام الآخرين طريق السمو أم لا ؟

ورداً على هذا السؤال أذكر أن جدتى كانت تقول لنا أنها حين كانت شابة كانت هى ومثيلاتها من الشابات يخلعن مجوهراتهن قبل الذهاب إلى الكنيسة ، ويلبسن ثياباً لا تخلو من الإناقة ولكنها بسيطة زهيدة الثمن . والسبب فى ذلك أنهن تعلمن أن الكنيسة تجمع بين الفقيرة والغنية ، وبين القانعة والطامعة ، وبين الراضية والساخطة . فكن يلبسن الثياب البسيطة ويتجردن من حليهن كى لا يثرن الانفعالات المتضاربة التى تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان وربه الذى يعبده . وهذا الحرص لم يكن ليقصر على مراعاة أترابهن من الشابات بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك فيشمل الحرص على مراعاة الشبان أيضاً لأن الشابة إذ ذاك كانت تربأ بنفسها عن أن تكون أداة لإستثارة عوامل الشر فى نفس الشاب الذاهب إلى الكنيسة ليصفو

وليحاول السمو . فما أحرانا الآن بأن نعاود السير تبعاً لهذه الخطة الحكيمة التى اختطتها جداتنا .

ثم لنذكر أن الترابط القائم بين البشر حقيقة لا مراء فيها رغم تجاهلنا . إياه . والجميل فى هذا الترابط أن القديسين الذين سموا بأنفسهم قد عاونوا الإنسانية بأسرها على السمو وأناروا أمامها السبيل بقدوتهم . غير أنه ما دام هناك أشخاص استحوذت عليهم الأنانية فأنستهم واجبهم نحو إخوتهم فى إخوتهم فى البشرية وجعلتهم أداة لعثرة الآخرين فالأجدر بنا أن نذكر أنفسهم بتلك القصة المليئة بالعبرة والتى حدثت للأنبا أرسانيوس معلم أولاد الملوك ، وتتلخص هذه القصة فى أن أرسانيوس كان فى الأسكندرية ذات يوم ، وبينما هو جالس مع بعض الأساقفة عند مدخل الكنيسة إذا بأشهر غانيات الأسكندرية تمر على الطريق أمامهم . وكانت متبرجة للغاية . وحين ظهرت أمامهم أرخى جميع الأساقفة عيونهم كى لا تقع عليها ما عدا أرسانيوس فقد ظل يتأملها منذ أن بدت أمامهم حتى توارت عنهم ، وحينذاك التفت إلى الأساقفة وقال لهم : « إن هذه الغانية تعطينى درساً رائعاً . لقد تأملتها فوجدتها قد تزينت وتبرجت إلى أبعد حدود الزينة والتبرج فقلت لنفسى : إن هذه الغانية تتكبد مشقة التبرج والمغالاة فيه لترضى الرجال الذين ليسوا سوى بشر . فأى مشقة تكبدت لأجمل نفسى وأزينها إرضاء لخالق ؟

وخير ما نختتم به الحديث عن التزين كلمات سيدنا له المجد التى قالها للمرأة السامرية وهى : « الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا » لأن هذه الكلمات هى نورنا الهادى الذى يسير بنا حتما إلى سواء السبيل .

الرجال والكنيسة

لقد درجنا فى مجتمعنا على أن يبدى الرجال رأيهم فى تصرف السيدات داخل الكنيسة وخارجها ، ويعلنون هذا الرأى جهاراً من على المنابر وفى المجلات . فمن يدرى ؟ ربما كانت الفرصة سانحة الآن لأن نعاملهم تبعاً بالمثل ونعلن رأينا فى تصرفهم . وماكنت لأتعرض لذلك لولا أننى كتبت عن الأطفال والسيدات فوجدت أن الحلقة لا تكون كاملة من غير الكلام على الرجال . لذلك سأقصر حديثى عن الرجال فى الكنيسة .

وأول مأخذ آخذه على الرجال هو أن غالبيتهم لا تزال للآن تخدم الكنيسة خدمة ارتجالية لا قواعد لها ولا تنظيم . فمعظم الوعاظ لا يفكرون قط فى ما سيقولون ، بل إنه ليخالجنى الشك فى أنهم لا يدرون ما هو الجزء الذى سيقرأ فى القداس فلا يسمعونه إلا حين يقال فى الكنيسة وعندها يقوم الواعظ ليصول ويجول ـ وقد يصيب الموضوع الخاص أو قد لا يصيب . حتى ليخيل للسامع أن المهم هو أن يعلو صوت الواعظ تارة وينخفض أخرى وأن يرن صداه فى أركان الكنيسة بدلا من أن يكون الغرض من الوعظ إعطاء الشعب درساً متصل الحلقات . والحق أننا ضقنا ذرعاً بهذا النوع من الوعظ ـ لأن الوعظ يهدف فى حقيقته إلى البنيان ، وهو أداة تعليمية هائلة . وكان فى العصور الأولى من الوسائل التى يستعين بها الآباء على كسب الذين هم من خارج وتدعيم الذين قبلوا الإيمان. ومن الممكن أن يستعيد مكانته هذه فى عصرنا الحالى خصوصاً أن الغالبية العظمى من القبط الآن يجهلون إلى حد بعيد تاريخ كنيستهم وتعاليمها وطقوسها . ولو كان الواعظ يهدف إلى تزويد الشعب بهذا التاريخ وهذه التعاليم وهذه الطقوس لكان لعمله أثر عظيم

ولكان وعظه للبنيان حقاً ، وليت الأمر اقتصر على عدم الاستعداد - لأن هذا الارتجال (وإن يكن ذنباً فى حق الكنيسة) إلا أنه أهون الشرين .

والشر الثانى الذى يقترفه الوعاظ فى حق الكنيسة هو أن غالبيتهم (حتى الذين لا يتسرب الشك إلى أرثوذكسيتهم) يقدمون للشعب أمثلة من قادة الفكر الغربيين ومن التاريخ الذى لا صلة لنا به ، وينسون أولئك الأبطال الأفذاذ الذين أنجبتهم الكنيسة القبطية المصرية الصميمة . فقلما نسمع واحداً يحدثنا عن أثناسيوس الرسولى أو كيرلس عامود الدين أو ديسقوروس الذى تمسك بالإيمان رغم تجبر الحكام ، أو غيرهم من الأعلام الفطاحل الذين يوصفون بمعلمى المسكونة ، والذى يكفى واحد منهم لأن يحلى جيد كنيسته . مع أن تراثنا الروحى والفكرى أعظم وأسمى ما تزهو به الأمم وأذكر بهذه المناسبة ملحوظتين : الأولى جاءت على لسان مواطن مسلم قالها بعد أن قرأ بستان الرهبان من أوله حتى آخره وهى : « انى لمندهش منكم معشر القبط ! كيف يكون لديكم هذا الكنز النفيس فلا تطبعونه ؟ ثم تتهافتون على مطالعة الكتب الغربية عنكم . مع أن فى « البستان » ما يغنيكم عن كل هـــذه الكتب ! » والملحوظة الثانية قالها لى دكتور جوردين أستاذى الأمريكى العظيم ، قالها بعد أن سمع أن بعضا من القبط يخرجون على كنيسة الآباء والأجداد لينضموا إلى المذاهب الدخيلة - وهذه كلمات دكتور جوردون : « كل ما أستطيع أن أقوله عن القبط الخارجين على كنيستهم الأصيلة هو أنهم يجهلونها تماما . لأنهم لو عرفوها لوجدوا فى تعاليمها الغـــذاء الذى يشبع أرواحهم وعقولهم » . والملحوظتان من رجلين أجنبيين عن الكنيسة المصرية المجيدة ولكنهما يعبران عن حقيقة واحدة هى عمق الغنى الروحى الفكرى الذى خلفه لنا آباؤنا الأماجد .

هذا عن الوعظ والوعاظ - أما الشمامسة فهم أيضا يتبعون خطة الارتجال. ويندر أن نجد فرقة منظمة تخضع لرئيس واحد نافذ الكلمة يقودها وينسق ألحانها. وهذا الارتجال يجعل ألحاننا العذبة الحنونة مشوشة متنافرة. فبدلا من أن تكون هذه الألحان وسيلة لتهذيب النفوس وللتحليق بها إلى العالم الروحى تتحول إلى وسيلة للنفور والاستهجان. ولقد حدث أكثر من مرة أن امتنع بعض الناس من الذهاب إلى الكنيسة لأن الشمامسة يصدعون الدماغ! وفوق هذا التنافر فى الأنغام فهناك تحوير أو إضافات فى الكلام - وأوضح مثل أسوقه لهذا التحوير هو تلك الكلمات التى يتلوها الشماس قبل التناول مباشرة حين يهتف: «صلوا من أجل التناول باستحقاق من هذه الأسرار المقدسة» والمقصود من هذه الكلمات هو التوسل إلى الله عز وجل ليجعلنا أهلا لأن نتناول من جسده المقدس ودمه الزكى الكريم. غير أن عدداً من الشمامسة يقول: «صلوا من أجل التناول باستحقاق ومن أجل هذه الأسرار المقدسة» والعجيب فى هذه الكلمات أنها تجعل من البشر مصلين لأجل فادى البشر! ومع ذلك فالشماس يرددها ولا يصححه أحد فتتكرر من شماس إلى شماس!

وهكذا نجد أن الارتجال يضعف من بهاء الكنيسة ورونقها. فنحن أشبه بمن يملك قطعة من الماس فيصوغها فى خاتم من الصفيح!

* * *

والآن لنترك القائمين بأعمال معينة فى الكنيسة لنتكلم عن الرجال بصفة عامة فنجد أن الرجل يدخل الكنيسة وحده حتى إن كان مع عائلته. ويحدث أحيانا أن يستجمع أحد الرجال شجاعته فيأخذ ابنه معه. ولكن - عند أول بادرة من الحركة أو الكلام يرسله على الفور إلى أمه. فتتلقاه الأم

بحنانها المعهود وصدرها الواسع . ثم يحدث بعد ذلك أن يتململ طفل أو يتكلم أو يبكى ، وعند ذاك تجتاح الرجال موجة من السخط فيقطبون وتتردد « هش . هش » من عدة أفواه ! فيحدثون (دوشة) أضعاف ما يحدثه الطفل من غير أن يردعهم رادع . وثقوا أن الأم يسعدها أن يظل ابنها هادئاً .

وليس من شك فى أن الهدوء من الوسائل المساعدة على الصلاة ، وليس من شك أيضا فى أن الأم حين يحدث طفلها «دوشة» تتضايق وتشعر بالخجل فتحاول إسكات طفلها بقدر ما فى وسعها من حيلة . على أنه ما من شك أبداً فى أنه لو سكت الرجال لمكنوا الأم من إسكات طفلها فى فرصة أقصر من تلك التى يتداخلون فيها .

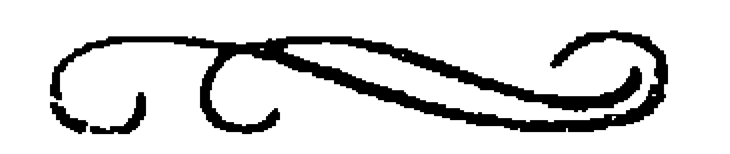
وحبذا لو تركوا للأم فرصة فإن وجدوها لا تؤدى واجبها نحو تهدئة طفلها حقّ لهم التدخل .

ثم إن هناك همساً يحدث أحيانا بين الأطفال المتعلقين بكنيستهم إذ يدفعهم تعلقهم هذا إلى الاستفهام عما لا يعرفون . ومن مصلحة الكنيسة أن يسأل الأطفال كى ينشأوا عارفين بهذه الكنيسة المجيدة . ولا ضير على المصلين إن همس الأطفال قليلا لأن مخلصنا الصالح يريد الأطفال ويريدهم صاحين متنبهين . ولكن الرجال يبدون سخطهم أمام هذا الهمس ويلتفتون شزراً نحو الهامسين . والعجيب أن هؤلاء الرجال يبيحون لأنفسهم أن يتكلموا من وقت لآخر بينما يرفضون هذا الحق للأطفال . فهم للآن لم يتعلموا ذلك الدرس البديع الذى ألقاه مخلصنا له المجد حين قال لتلاميذه : « دعوا الأولاد يأتون إلىّ . . ! »

وليس ذلك فحسب بل حدث أن طفلا دفعه حب الاستطلاع إلى أن

يقف داخل الهيكل على مقربة من الكاهن يتفرس فيه فى صمت وإذا بالشماس الخادم داخل الهيكل يحمل هذا الطفل (الذى لم يتجاوز السنتين) فى اندفاع ويأتى به نحو السيدات متسائلا من أمه . فتقدمت هى طبعاً وسألته بدورها لماذا حمل الطفل وهو صامت ؟ فأجابها بأن الناس ستلتفت إليه بدلا من الالتفات إلى أبينا القمص ! وبالطبع دفعت هذه الحركة العنيفة الطفل إلى البكاء بعد أن كان صامتاً راضيا ، وبالطبع رنت كلمة « هس ـ هس » من عدة أرجاء ! ولو أن الطفل تُرك فى مكانه لراقب أبانا يصلى فى صمت ولسعد بهذه المراقبة ، ولكن الشماس عكر مزاجه ومزاج أمه ، فتضافر معه الرجال بدلا من لومه . فجاء تصرفه عكس المثل القائل « يعملوها الصغار يقعوا فيها الكبار » لأن الكبار « عملوها » فوقع فيها الصغار . ولو تأمل الرجال تصرفهم بنزاهة لأيقنوا مدى مسئوليتهم فى ما يحدث من تشويش .

وبعد ـ فهذه الخواطر قد جالت فى خاطرى منذ زمن ، وكنت أرجو الكتابة عنها من قبل ولكنها جاءت فى الوقت المناسب . وكل ما أرجوه من اخوتى الرجال أن يقرأوها بإمعان ويضعوها فى الميزان . لأننا إن كنا نهدف حقا إلى أن تستعيد كنيستنا مجدها فعلينا جميعا أن نفحص النقد الموجه إلينا : إن وجدناه فى محله عملنا على تلافى أسبابه ، وإن وجدناه فى غير محله سرنا فى سبيلنا ولا حرج علينا .



الأطفال والكنيسة

لقد سرت بيننا فى السنوات الأخيرة نغمة شاذة ، غريبة عنا . لا تتفق وتقاليدنا العريقة . هذه النغمة تتلخص فى وجوب إبعاد الأطفال عن الكنيسة لأنهم يشوشون الصلاة على الكبار ! وليس من شك فى أن النظام والهدوء من مستلزمات الخدمة الإلهية كى يتمكن الجميع من الاستمتاع بها .

على أن الكنيسة التى لا يذهب أطفالها اليها ، ولا يعتادون أن يشعروا بأنهم جزء منها وهم بعد صغار كنيسة مبتورة تنقصها الحياة . ومما يثير الدهشة أن الأجانب الذين اعتادوا النظام التام يجدون فى كنيستنا الزاخرة بالأطفال تلك الحرارة الدافقة التى يتطلبونها فى كنيستهم ولا يجدونها . واليكم مثلان فقط من الأمثلة العديدة التى صادفتنى . المثل الأول عن سيدة أمريكية عاشت فى مصر عدة سنوات ثم صحبتها فى يوم أحد التناصير إلى كنيسة أبى سرجة فى مصر القديمة . وكان عدد الأطفال الذين جىء بهم لينالوا سر الصبغة (المعمودية) لا يقل عن الثلاثين . ووقفنا على مقربة منهم لتشاهد صديقتى عن كثب ما يؤديه أبونا من شعائر . ورأيتها واقفة فى خشوع وإجلال والدموع فى عينيها . ولما انتهى أبونا من مسئوليته العظمى وانتقلنا كانا لنحضر القداس الإلهى همست فى أذنى قائلة : « إن ما يعجبنى فيكم معشر القبط هو تلك الألفة الوثيقة التى تربط بينكم وبين إلهكم — فتأتون اليه كعائلات مترابطة » . فابتسمت وصمت ولم أرد أن أقول لها بأننا فى هذا القرن العشرين قد انتقلت الينا عدوى الرغبة فى إبعاد الأطفال عن الكنيسة بحجة أنهم يشوشون الصلاة ! !

ومرت أربع سنوات . وفى يوم أحد الشعانين من هذه السنة طلبت إلى

صديقة انجليزية أن أذهب معها إلى الكنيسة المعلقة لأنها هى وإثنان من المشتغلين بالإذاعة يريدون تسجيل الصلوات الخاصة بذلك اليوم المقدس من تلك الكنيسة القديمة ، وذهبت معها. فوجدت أنهم أحضروا آلتين للتسجيل وجلسوا فى الشرفة المطلة على الكنيسة التى كانت مخصصة للسيدات قديماً . فركبوا إحدى الآلتين عند النافذة المطلة على صحن الكنيسة لتسجيل الصلوات ثم ركبوا الآلة الثانية عند الشرفة المطلة على الساحة التى يدخل منها الشعب إلى الكنيسة والتى كانت يومذاك تموج بالشعب : كباراً وصغاراً ، رجالا ونساء وتساءلت عن السبب فى تركيب الآلة الثانية فى هذا المكان فقيل لى إنهم يريدون أن يسجلوا أصوات الأطفال وأمهاتهم وآبائهم لكى يعطوا مواطنيهم صورة عن هذا العيد العظيم وكيف أنه فى الكنيسة القبطية عيد شعبى يشترك فيه الجميع .

وهنا استجمعت شجاعتى وقلت : « ولكن هذا الشعور الشعبى الفائض هو بالذات ما لا يريده بعض القبط (المودرن)، بل هم يخجلون منه ويحاولون كبته » . وما كدت أتلفظ بهذه الكلمات حتى صاح المسئول عن الإذاعة : « بالله عليكم لا تفعلوا ذلك فإن مشاركة الصغار للكبار هى التى تضفى على الكنيسة حيوية وحرارة لا نجدها نحن فى كنيستنا . لقد وضعت هذه الآلة وأنا أهدف إلى استثارة مواطنى ليعاودوا استصحاب أطفالهم إلى الكنيسة فتستعيد حيويتها بدلا من البرود المستحوذ عليها الآن » .

ولقد قال هذه الكلمات فى انفعال عجيب دل على صدق اخلاصه . فدفعنى إلى التفكير ملياً فى ما يقول . .

إن ما أحسه آباؤنا بقلوبهم فمارسوه عن إيمان أصبح الآن فى نظرنا أمراً

عتقوتاً يجب التخلص منه . وفى الوقت الذى نريد نحن أن نقضى عليه تحت تأثيرات التعاليم الغريبة هو بعينه ما يستسيغه الغربيون الذين استفزنا مواطنوهم!

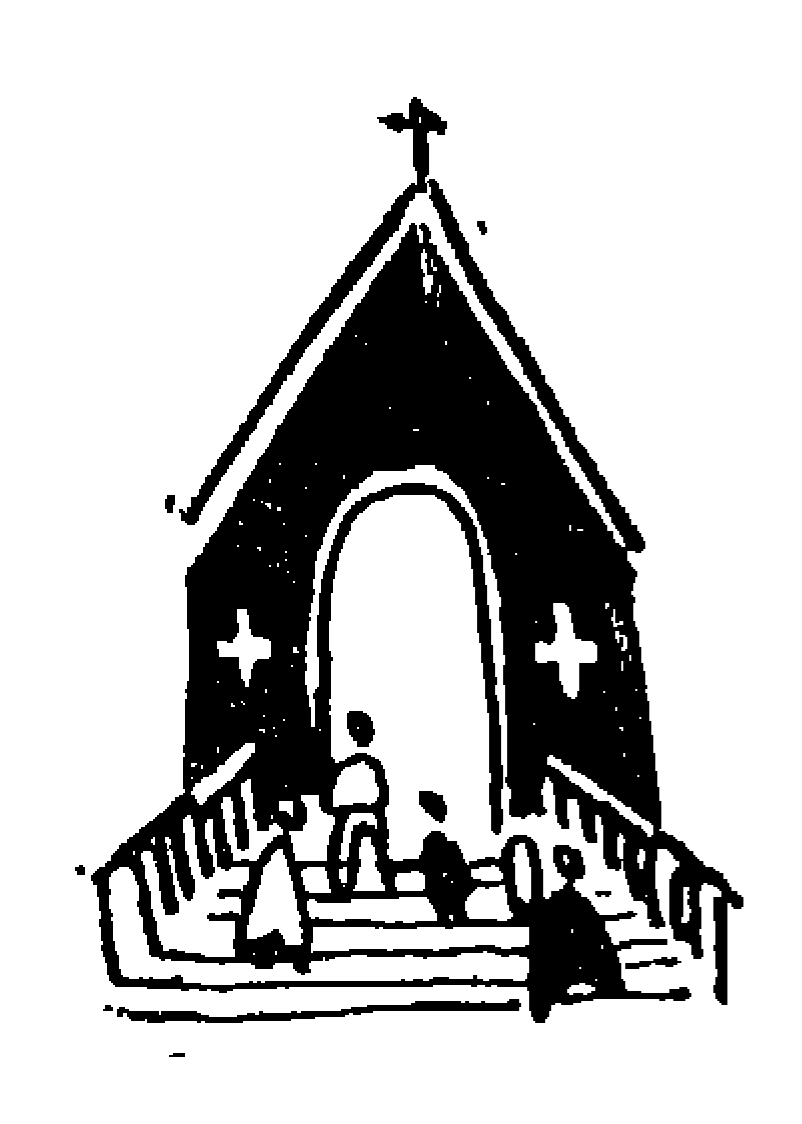
جميل أن نطلب الهدوء فى كنيستنا، وجميل أن نرغب فى النظام: ولكن.. أنطلب هذا الهدوء وهذا النظام على حساب الكنيسة ؟ إن الأطفال هم عماد المستقبل . وعلى قوة إيمانهم وصدق ولائهم تتوقف قوة الكنيسة - فإن أبعدناهم عنها وهم فى السن المستعد لتقبّل الروحيات مهدنا السبيل لتنشئتهم تنشئة فاترة وأفقدنا الكنيسة عنصراً من عناصر قوتها وحيويتها . فيجب علينا أن نستصحب أطفالنا حتى وهم بعد رضعان إلى الكنيسة كى تمتزج شعائرها وطقوسها بأرواحهم وباللبن الذى يرضعونه .

وهنا يحضرنى مثل موجع لا شك فى أنه يوجع قلب كل غيور . ذلك أنه حدث أن كنت فى اجتماع فى يوم من تلك الأيام التى سبقت عيد الميلاد المجيد هذه السنة والتى كانت مكرسة للصوم الانقطاعى ولإقامة القداسات الإلهية. فلما انتهى الاجتماع سألتنى صديقة من المجتمعات عما إذا كنت سأعود إلى المنزل مباشرة فأجبتها بأنى ذاهبة إلى الكنيسة فأبدت رغبتها فى المجىء معى . وبالطبع رحبت بها. وكانت معها ابنتها التى تبلغ حوالى الخامسة عشرة. وحين دخلنا الكنيسة أخذت الفتاة تسأل أسئلة دلت دلالة صارخة بأنها تجهل كنيستها جهلا تاماً. فاعتذرت أمها عنها بأنها قلما تصلى فى كنيستنا لأنها تحضر الصلاة فى كنيسة المدرسة التى تذهب اليها ! فاستثار هذا الاعتذار شتى الانفعالات داخلى ، وأدركت أكثر فأكثر الحكمة التى أملت على جدودنا وجوب استصحاب الأطفال إلى الكنيسة . وإنى أفخر (مع أن الافتخار رذيلة) بأن الأطفال فى عائلتنا متى أرادوا أن يلعبوا لعبوا « الكنيسة » وأعطوا لكل منهم دوراً خاصاً . بل أنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك لأنهم حين يلعبون

« استغماية » فاختبأ منهم من اختبأ. نادى الطفل المكلف بالبحث متسائلا عما إذا كانوا قد اختبأوا فعلا أو لا بقوله : « خلايصون » . وهذا بالطبع نتيجة استساغتهم للطقوس الكنسية التى اعتادوا حضورها أسبوعياً وفى كل مناسبة .

وأخيراً أقول بأن المربين يعلنون بأن الأطفال مرآة للكبار المحيطين بهم . فإن وجدوا المسئولين عنهم يحبون الكنيسة ويواظبون على الصلاة ويقفون أثناء الشعائر فى خشوع واتزان شاركوهم هم أيضاً هذه المشاعر ، وعكسوها فى تصرفاتهم . فمتى رأينا أطفالا يتكلمون ويكثرون من الحركة ويشوشرون على المصلين علينا أن نتأمل الكبار المسئولين عنهم . وفى أغلب الأحيان نجد الآباء والأمهات يعطون أطفالهم قرباناً « ليتسلوا » به أثناء الصلاة فكيف تنتظر من طفل أن يخشع وأمه أو أبوه يهيآن له الفرصة « للتسلية » ؟

لقد اتبع آباؤنا حكمة الفادى الحبيب الذى قال : « دعوا الأطفال يأتون إلىّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » . وهذه الحكمة سر من أسرار قوة هذه الكنيسة القديمة التى غالبت الزمن . فخليق بنا أن نحافظ على هذا المبدأ الحكيم وأن نرقب تصرفاتنا لنقدم لأطفالنا القدوة الصالحة التى تجعل منهم أبناء بررة .



قف دون رأيك . . .

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهـاد

كان القرن السادس بالنسبة للمصريين ولكنيستهم قرن الأعاصير والعواصف ، فقد كانوا يحرصون كل الحرص على ما سلمهم إياه آباؤهم من تراث مجيد . ولقد طالما وقفوا فى وجه الأباطرة وقفة الأبطال دفاعا عن إيمانهم الأرثوذكسى الصميم . فلاقوا فى هذا السبيل من صنوف العذاب والنكال ما تنوء به الجبال . ومن بين البلايا التى انصبت عليهم نفى باباوات الإسكندرية الأصليين وتجليس الدخلاء من صنائع الأباطرة على الكرسى المرقسى المجيد .

ورغم ما حلّ بالمصريين من كوارث فقد ظلوا متمسكين باستقلال كنيستهم رافضين أن يحنوا الهام لغير باباواتهم الاسكندريين الشرعيين .

ويتصف هذا القرن السادس بصفتين بارزتين أولاهما المقاومة المستمرة التى كانت فى غالب الأحيان تتحول إلى ثورة عامة ضد أباطرة القسطنطينية ، وثانيتهما فحول الآباء الذين أنجبهم هذا القرن والذين كانوا للأنبا دميانوس (البابا الـ ٣٥ سنة ٥٦٣ - ٥٩٣ م) خير عضد فى دفاعه عن الكنيسة .

وقد منح الله الأنبا دميانوس عمراً مديداً فعاصر أربعة أباطرة هم يوستين الثانى وطيباريوس وموريس وفوكاس . وفى أثناء حكم يوستين الثانى وطيباريوس كان توتر العلاقات بين أبناء البلاد والدخلاء خفيف الوطأة ، ولكن لم يكد الامبراطور موريس يعتلى العـرش حتى اشتدت وطأة التوتر مما اضطر

المصريين إلى التمرد عليه . ولقد بلغت الثورة حداً اندلعت معه نار الحرب النظامية . وكانت قيادة المصريين فى أيدى ثلاثة أخوة هم أبسخيرون ومينا ويعقوب .

ولقد نجحت هـــذه الحملة نجاحاً كبيراً إذ قد تعقبت الجنود المصريون الرومانيين حتى جزيرة قبرص ، وأقام الإخوة الثلاثة دويلة مصرية فى الدلتا . إلا أن الامبراطور موريس لجأ إلى الخديعة حين وجد قواته تتقهقر فأدعى أنه يريد عقد الصلح مع المصريين وأرسل اليهم مندوباً يفاوضهم . وكان هذا المندوب ـ رغم كونه رومانياً ـ ممن يحبون مصر وأهلها فاطمأن اليه أبسخيرون وأخواه وبدأوا يفاوضونه ، وفى أثناء المفاوضات بعث الامبراطور بقوة جديدة هجمت على المصريين المستأمنين فأخذتهم على غرة وقتلت منهم عدداً عديداً وتشتت الباقون .

وعند ذلك قبض القائد الرومانى على الإخوة الثلاثة وقتلهم ثم طارد أولادهم ورمى بابن أكبرهم فى البحر . وبهذه الخديعة سحق الامبراطور موريس الثورة وعاد يستبد ببنى مصر .

وكانت هذه الروح الثائرة التى طغت على المصريين فى القرن السادس وليدة الأحداث التى حدثت فى القرن الخامس . فلقد شعر الحكام ـ الدينيون والمدنيون على السواء ـ بالحسد نحو البابا الأسكندرى لما كان له من نفوذ على كل البلاد المسيحية فتألبوا عليه وعقدوا مجمعاً فى خلقيدون سنة ٤٥١ م .

ومع أن المتآمرين ممن حضروا ذلك المجمع المشئوم لجأوا إلى كل الحيل ليثبتوا أن الأنبا ديسقوروس مبتدع إلا أن جميع حيلهم باءت بالفشل حتى

لقد أعلن أناطوليوس أسقف القسطنطينية (وأحد الذين حضروا هذا المجمع) بأن أرثوذكسية ديسقوروس لا غبار عليها . فلما فشلت جميع المحاولات فى لصق تهمة الابتداع بالبابا الأسكندرى لم يجرؤ المجمع على حرمه ولا حتى على تجريده بل اكتفى بخلعه بحجة أنه لم يلبِ دعوة المجمع وتغيب عن الحضور. فغضب المصريون لهذا الحكم الغاشم ورفضوا أن يذعنوا لحكم الامبراطور مرقيانوس (امبراطور القسطنطينية إذ ذاك) بأن ظلوا على ولائهم للأنبا ديسقوروس وقاطعوا الأسقف الدخيل الذى فرضه عليهم مقاطعة تامة .

وبذلك احتفظ المصريون باستقلال كنيستهم وحافظوا على الروح القومية التى كان آباء الكنيسة يذكون نارها على مدى الأيام .

ولشدة تمسك القبط بقوميتهم عاشوا رغم كل الأهوال التى لاقوها على أيدى الحكام المستعمرين والأساقفة الدخلاء . وهذه الروح ـ روح الاشتعال بحب مصر ـ كانت القوة التى لازمت القبط جيلا بعد جيل فمكنتهم من أن يحافظوا على تقاليدهم وتعاليم آبائهم حتى الآن .



الصـــــلاة

« دكتور الكسيس كارل (Alexis Carrell) عالم ذائع الصيت وطبيب من أبرز أطباء العالم . والمقال التالى خلاصة موجزة لكتاب أصدره أخيراً ، كما أصدر كتاباً ذكر فيه آيات الشفاء التى رآها بعينيه تتم بشفاعة السيدة العذراء فى لورد . وحديثه عن الصلاة له قيمة مزدوجة : فهو شهادة طبيب عالم وهو صادر عن اختبار حق .

وكتابة دكتور كارل عن الروحيات هى أيضاً دليل ساطع على تحول الغرب فى هذا العصر نحو الإدراك الروحى »

ما هى الصلاة: إن الصلاة هى امتداد الروح صوب العالم غير المرئى . وهى تتخلص عادة فى شكوى أو فى صرخة ألم أو فى طلب النجدة ـ ولكنها تتحول أحياناً إلى تأمل هادىء فى الخالق المبدع الفائق الوصف الحال فى كل مكان. بل إن الصلاة هى ارتفاع الروح إلى الله ، أو بالحرى هى عمل المحبة والسجود نحو ذاك الذى وهبنا هذه النعمة العجيبة التى هى الحياة . والواقع أن الصلاة هى المجهود الذى يبذله الإنسان كى يتصل بالله،الذى هو الحكمة الفائقة والجمال الذى لا يوصف ، أبو الكل ومخلص الجميع . وكما أن إدراك الجمال والاندفاع فى المحبة لا يتطلبان علماً ولا كتاباً كذلك الصلاة . لهذا نجد أن المساكين بالروح يدركون الله كما يحسون بحرارة الشمس وبعبير الزهور ـ أى أنهم يدركونه بقلوبهم فى بساطة ومن غير عناء . وهذا الإله يستطيع أن يقترب اليه من يعرف أن يحب أسرع ممن لا يعرف إلا أن يفهم ـ لأن المحبة لازمة لإدراك الله ولأن الفهم وحده لا يستطيع أن يسبر أعماق الروح .

فالصلاة إذن عبارة عن تحليق المحبة فى العلا .

كيفية الصلاة : لقد كان الله فى العصور الغابرة بعيداً عن الناس ، يخشونه ويحاولون استرضاءه بالذبائح والمحرقات . أما المسيحية فقد قربته إلى القلوب وجعلت منه أباً محباً شفوقاً . فصارت الصلاة له أمراً سهلا - لأنها أصبحت الحديث العذب المطلوب بين طفل وأبيه فهى إذن قد أصبحت عمل المحبة.

والصلاة تتراوح بين بضعة الكلمات المتقطعة التى يرددها الأطفال وبين القداسات الرائعة التى تفيض بالمعانى العميقة . ولكن أبسط الصلوات مقبولة لدى سيد الكائنات . بل أنه حتى الصلوات المحفوظة التى يرددها الإنسان (ترديداً قد يكون آلياً) هى أيضاً نوع من العبادة - فهى أشبه بالشمعة المتقدة . لأن مجرد ترديد الكلمات وإشعال النار الضئيلة هما أيضاً رمز إلى محاولة النفس أن تطير نحو الله .

والصلاة تكون أحياناً عن طريق العمل . ولا شك أن خير وسيلة للتقرب إلى الله هى طاعته . فنحن نردد يومياً : « أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك » . وما دمنا نرغب رغبة صادقة فى أن تتم مشيئة الله كان العمل بموجب هذه المشيئة ومحاولة تحقيقها نوعاً من الصلاة .

ولما كانت الصلاة مجهوداً نفسياً كانت الصلوات العديدة الصاعدة نحو العلا تتنوع بتنوع شخصيات المصلين . ولكن يمكن أن نلخصها جميعاً فى أمرين : الاستنجاد والتعبير عن المحبة .

والصلاة فى أسمى صورها تعلو عن مجرد الطلب . وفيها يكشف الإنسان عن خبيئة قلبه لخالقه ويشكره ويعلن له محبته وولاءه واستعداده لتنفيذ أوامره مهما تكن . فتصبح الصلاة وقتئذ تأملات روحية عميقة . ومن

طريف ما يروى أن شيخاً فلاحاً ظل ذات يوم فى الكنيسة بعد انصراف الناس فسأله خادم الكنيسة : « هل تنتظر أحداً ؟ » أجابه : « إننى أنظر اليه وهو ينظر إلىّ » فكل ما يقرب بين الإنسان وبين الله صلاة .

أين نصلى ومتى ؟ : إن الإنسان فى ميسوره أن يصلى حيثما كان ـ فى الطريق وفى الترامواى وفى المدرسة وفى المصنع . ولكن الصلاة تصدر عن النفس بسهولة فى الأماكن الخلوية وبقرب المياه الجارية وفى سكون حجرتنا وفى دور العبادة . إلا أننا نجد أن الله لا يتحدث إلا لمن حل السلام داخل نفسه .

لذلك كان من المستحسن أن تقوم أماكن العبادة بعيداً عن ضوضاء المدن وضجيجها ليجد الإنسان داخلها الجو الملائم لهدوء النفس . وفى سكون هذه الأماكن يرفع الناس عقولهم وقلوبهم نحو الله فيجدون الراحة والاستجمام حتى لأجسامهم ويزول عن أفكارهم كل تشويش وتنسكب عليهم القوة اللازمة لجهادهم الشاق التى تزيده المدنية ثقلا وتعقيداً .

وحين تصبح الصلاة عادة تفعل فعلها فى الشخصية . لذلك كان لزاماً على كل فرد أن يدوام على الصلاة . وقد نصح أحد الآباء بقوله : « فكر فى الصلاة أكثر مما تتنفس » . والحق أنه لا معنى لأن نصلى صباحا ثم ننصرف باقى النهار كالوثنيين لأن صلواتنا تكون إذ ذاك باردة جافة . أما إذا سعينا إلى التفكير فى الله طول النهار ولو مدى لحظات من ساعة إلى أخرى فإننا ندرك بأننا فى حضرة الله على الدوام . وهذا الإدراك يجعل النعمة الإلهية تنساب داخلنا انسياب النهر فى مجراه . وعند ذاك تصبح الصلاة جزءاً من حياتنا ويصبح لها أثر واضح فى كل تصرفاتنا .

أثر الصلاة : إن الصلاة تؤدى حتما إلى نتيجة ـ ولو أن نتيجتها تأتى أحياناً

بطريقة خفية هادئة غير ملموسة - لأن الصوت الهادىء الذى يهمس فى أعماقنا بالإجابة يطغى عليه العالم. كذلك قد تأتى الإجابة أحياناً فى صورة غير منتظرة كما يحدث لمريض يصلى كى ينال الشفاء فبدلا من أن يشفى جسمياً يشعر بتحول نفسى روحى عجيب .

ولما كانت الصلاة شيئاً نفسياً محضاً - ولما كان فعلها الخفى أقوى من فعلها الظاهر كان من الصعب إدراك مدى أثرها فى حياتنا . ولكن لا شك إطلاقا فى أن الصلاة تجاب - سواء أكانت الإجابة مادية أم روحية .

الآثار النفسية للصلاة : إن الصلاة تؤثر فى الروح وفى الجسم . وهذا الأثر يكون قوياً أو ضعيفاً تبعاً لنوع الصلاة ولقوتها وتكررها . ومع أنه من الصعب أن ندرك عمق إيمان الآخرين فإنه من الممكن أن نعرف قوة صلاتهم من سلوكهم ، فإن الصلاة تقوى إدراك القدسيات . وحيثما تكثر الصلاة نجد الاستمساك بالواجب وتقدير المسئولية ، ونجد نقصاً فى الحسد والشر .

وحين تصبح الصلاة عادة يصير لها أثر واضح فى الحياة حتى لكأن شعلة من النار تأججت فى أعماق النفس فجعلتها ترى أخطاءها وهفواتها وكبرياءها وتسعى جاهدة نحو السمو . وبالتدريج ينفتح أمامها طريق النعمة وتنال القوة على احتمال المشاق والآلام ! وإننى كطبيب قد لاحظت فعل الصلاة مراراً وتكراراً - فرأيت العجب ، لقد راقبت مرضى لا رجاء للعلم فى شفائهم يقومون معافين . ولكن أعجب ما فى الصلاة هو الأثر النفسى العميق . فقد عرفت بالخبرة كيف أن سلام الله الذى يفوق كل عقل يفيض على القلوب . فالمتصلون بالله يمتلئون سلاما وينشع منهم السلام إلى كل من يحيط بهم .

أثر الصلاة فى الشفاء : إن الشفاء الناتج عن الصلاة كان ولا يزال شغل

الناس الشاغل. ونحن لا ندرك أثر الصلاة التدريجي فى معظم الأحيان ولكن أثرها يكون خاطفاً فى بعض الأحوال إذ يشفى المريض فى لحظات (أو على الأكثر فى ساعات) . ويجد الأطباء فى مثل هذه الإشفية الخاطفة أن قوى الجسم الحيوية تعمل بسرعة متزايدة لا يمكن تعليلها - وليس فى إمكاننا أن نصفها إلا بأنها صدى لقول سيدنا بأن كل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له .

معنى الصلاة : والخلاصة أن كل شيء يثبت لنا أن الله يصغى إلى الإنسان ويستجيب له .

ويجب أن يدرك الجميع بأن الصلاة ليست مخدراً - بل ليست دواء مسكناً . وإنما هى قوة فعالة فى حياتنا نحتاج اليها كما نحتاج إلى أن نعمل وأن نحب . وهى تصدر عن أعماقنا الروحية .

وإن التاريخ ليثبت لنا أن الانسان لا يمكنه أن يدرك القيم الأدبية من غير إدراك للقدسيات . ذلك لأن الانسان وحدة كاملة لا تتجزأ فهو ليس مجرد أنسجة وسوائل بل أنه يجمع إلى جانب هذه الأشياء المادية قوى عاقلة مدركة . فهو فى الواقع لا يحده الزمن لأن فى داخله شيئاً خالداً .

والصلاة هى الجسر الذى يصل بين الانسان وبين عالم الروحيات اللانهائى، بل بينه وبين الله . ولما كان الانسان يحتاج إلى الله كما يحتاج إلى الماء والهواء كان عليه أن يصلى كى يستكمل شخصيته وكى تفيض روحه بالنور وبالسلام .

لنقف قليلا

تمر الأيام سراعاً وتتوالى ـ وقلما يخطر ببالنا أن نقف فى أى يوم منها لنتأمل فيما أنتجنا خلالها وفيما إذا كانت نفوسنا قد سمت أثناء تواليها أم لا.

ولكن يحدث أحيانا ما يلفت نظرنا ويدفعنا إلى الوقوف والتأمل. فقد شاءت عناية القدير أن يمنحنا فرصة أخرى لزيارة بعض الجهات التى لم نرها من قبل. وكان أن ذهبنا إلى بلدة تسمى «سان رافاييل» تقع على الشاطىء الجنوبى من فرنسا. وظننا فى بادىء الأمر أن أهل تلك البلدة قد دعوها باسم رئيس الملائكة. ثم سألنا أحد أصدقائنا عن السر فى هذه التسمية خصوصا حين رأينا أن تلك المنطقة تكثر فيها البلاد المسماة بأسماء القديسين. وعندها أجابنا صديقنا: إنه كان فى الزمن القديم دير يسكنه بعض الرهبان الذين جاءوا من وادى النطرون، ثم تعاقبت الأيام وزالت معالم الدير ولكن أسماء الرهبان لا تزال باقية تشهد بأن البذرة التى بذورها قد أتت بثمار كثيرة.

وتشاء عناية القدير أيضا أن أعثر وأنا فى تلك البلدة عينها على كتاب ألفه دكتور ألكسيس كاريل (Alaxis Carr I.) وهو عالم فرنسى بارز قام بأبحاث عدة وتجارب متنوعة حتى أنه نجح فى أن يجعل القلب ينبض خارج الجسم بوضعه فى محلول معين.

ولهذا البحاثة الكبير كتب فى العلم كما أن له كتبا تتعلق بالأمور الروحية من بينها كتاب عن الصلاة وكتاب عن رحلة قام بها إلى لورد حيث شاهد بعينيه بعد العجائب التى تجرى هناك بشفاعة السيدة العذراء. أما الكتاب الذى عثرت عليه وأنا فى سان رافاييل فهو كتاب طبعته زوجته بعد وفاته

واسمه « تأملات فى تسيير دفة الحياة » وقد دهشت وفرحت معاً إذ وجدت هذا العالم العلمانى يردد نفس النصيحة التى أسداها أنبا شنودة رئيس المتوحدين. فقد طالب قديسنا السوهاجى تلاميذه بأن يخلو كل منهم إلى نفسه حينما يستيقظ كى يفكر فى اليوم الجديد ، وفيما سيقع على عاتقه من عمل ، وفى الناس الذين سيصادفونه خلال اليوم ، ثم يعزم بمعونة الله أن يعمل جهده لإتقان العمل ومعاملة الناس المعاملة المسيحية الحقة . فإذا ما انتهى النهار وأوى إلى مخدعه عليه أن يراجع حوادث النهار ويحاسب نفسه حساباً صادقا ليرى إن كان قد استطاع أن ينفذ فعلا ما كان قد قرره على نفسه فى تأملاته الصباحية ، فإن وجد نفسه مقصراً عليه أن يطلب إلى الله معاونته كى يتمكن من معاودة الجهاد فى اليوم .

وهذه هى نفس النصيحة التى رددها البحاثة الفرنسى فى القرن العشرين، أى بعد مرور ستة عشر قرناً على المناداة بها فى مصر .

وليس ذلك فقط بل إن دكتور كاريل عبر عن حقيقة أخرى تحدث عنها آباؤنا فقد قال ما ترجمته :

« بالطبع ليس فى وسعنا أن نزيل الهموم ولا الأحزان ولا الأمراض. ولا الشيخوخة ولا الموت ـ لأن هذه جميعها تصيب الصالحين والأشرار على السواء . ولكن هذه المصائب تلبس رداء مختلفاً حين تقرع باب الرجل البار ـ إذ تفقد صورتها المفزعة أمامه ، لأن كل من يؤدى واجبه كإنسان ـ أى من يطيع قواعد الحياة وخصوصاً قاعدة السمو الروحى ـ ينال جزاء لهذه الطاعة التوازن العقلى والسلام الداخلى الذى يسبغه الله على مختاريه . فى وسط الآلام

والمخاوف بل حتى فى وسط ظلال الموت توهب القوة والنعمة لمن ظل أمينا إلى المنتهى » .

وحين نتأمل هذه الكلمات نجدها مطابقة تماماً لتلك القصة التى قيلت عن أحد شيوخ الصحراء وهى : عاش شيخ سنين عديدة فى مغارة منفردة . وبعد كل هـــذه السنين تساءل ـ « يا سيدى إن الآلام والمضايقات تصيب الأبرار كما تصيب الأشرار ، فما الفرق بين من يصنع البر ومن يصنع الشر ؟ وجاءه الرد على شكل رؤيا إذ قاده ملاك الرب إلى جانب سرير أحد القديسين وهو على وشك الانتقال، فرأى ملائكة النور تحيط به وهى ترتل ، كما رأى وجه القديس يفيض بهاء وتهليلا . ثم رآه وقد حملته الملائكة فى فرح وسلام ، وبعد ذلك قاده الملاك إلى مغارة رجل قضى العمر فى الشر وقارب النهاية هو أيضا ، فإذا بملائكة الظلمة تحيط به وإذا هو يئن ويتوجع ويتلوى . وعندها سمع صوتا يقول له :

هل عرفت الآن الفرق بين الاثنين ؟ إن الموت جاز على كليهما ، ولكن صورته اختلفت أمام كل منهما .

٭ ٭ ٭

هذه وغيرها جعلتنى أقف قليلا لأفكر فى تعاليم آبائى وفى سيرتهم التى يفوح شذاها فى كل الأرجاء . لقد عاشوا فى عزلة عن العالم وزهدوا فى مظاهره وأبهته ـ ولكن على الرغم من عزلتهم ومن زهدهم ، وعلى الرغم من أن العالم قد يجهل حتى أسماءهم إلا أنه لا يزال يردد تعاليمهم على مرّ الأجيال ـ لأن تعاليمهم كانت نتيجة لخبرة روحية عميقة مكنتهم من إدراك الحقائق الأزلية ولذلك ستظل هذه التعاليم باقية إلى آخر الدهور .

نخليق بنا ونحن على أبواب سنة جديدة لذكرى الشهداء أن نقف قليلاً لنفكر فى كل الجهود التى بذلوها، وفى كل الدماء التى رووا بها إيمانهم، وفى كل الآلام التى تحملوها بابتسامة الرضى ونشوة الفائزين ، حتى إذا ما انتهينا من التفكير نقرن تفكيرنا بالعمل فلا ندع أيام هذه السنة تمر كما مرت غيرها ، بل ندرب أنفسنا خلالها تبعاً لنصيحة أنبا شنودة فنسمو على صغائرنا ونعلو فوق أخطائنا ، ونتقبل مصاعب الحياة ومضايقاتها بنفس الطريقة التى تقبلها آباؤنا ـ أى أننا نتقبلها بلا تذمر ولا دمدمة ، نتقبلها بابتسامة الرضى ونشوة الفائزين .



فيض من الجمال

▲▲▲

منذ القـــدم بهرت السماء عيني الانسان فكان يتطلع إليها في عجب وخشوع . ثم تعاقبت القرون واتسعت مدارك الانسان فلم تزده إلا خشوعاً لمرأى السماء : لقد كان يخشع لمجرد النظر إلى الكواكب وهي تلمع وتشع ببريقها الفضي الهادىء فازداد خشوعا حين أدرك بأنها عوالم وأفلاك تدور بانتظام دقيق ، وتفصل الواحدة عن الأخرى مئات الآلاف من السنوات النورية . ولكن رجال الفكر والتأمل في كل مكان اعترفوا بأن كل هذه العوالم اللانهائية التي تملأهم إعجابا وتمجيداً للخالق لا توازي ما يشعرون به من إجلال نحوه حين يتأملون النفس البشرية . صحيح أن المرء حيثما تأمل يجد صوراً مختلفة للجمال الفائق الذي هيأه الآب السماوي لأولاده من بني البشر . ولكن من يتأمل النفس البشرية الساعية نحو الكمال الإلهي يدرك أنها أبهى سناء من كل ما في الوجود .

ولقد بدت لي هذه الحقيقة في أروع صورها هذا الصيف إذ أنعم الله عليّ بأن أرى صوراً متنوعة من آياته . فلقد رأيت في أحد الأيام السماء التي تغطي الغيوم بعض أجزائها وتبدو زرقتها في البعض الآخر ـ فتمطر تارة وتصحو طوراً . وإذا بقوس القزح يرتسم جليا زاهيا إلى حد أن كل لون من ألوانه بدا واضحا تماما ، وإلى حد أن انعكست صورته على قبة السماء فظهر قوس آخر أقل وضوحا منه على مسافة خيل لي أنها لا تبعد كثيراً عن

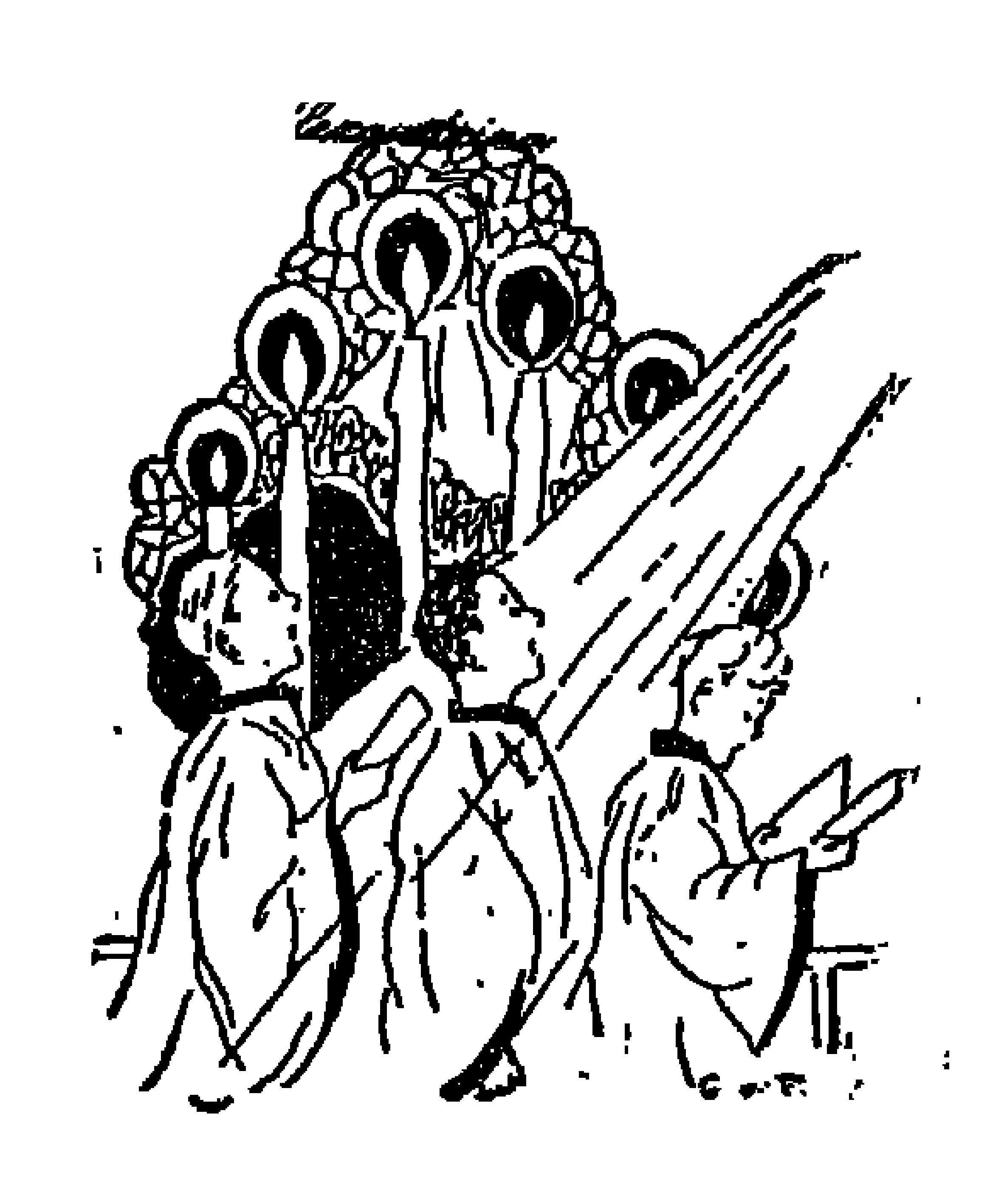
القوس الأول . . . ثم مررت بشواطىء تمتزج زرقة بحرها بزرقة سمائها بشكل عجيب . وترتفع على مقربة من الشاطىء جبال لونها أحمر تغطيها الأشجار الكثيفة من قمتها إلى سفحها . ولا يمكن لأحد أن يتصور حمرة هذه الجبال من غير أن يكون قد رآها - لأن الجبال عادة ليست حمراء . ولكن - هكذا شاء الفنان الأعظم - أن يقيم فى بعض الجهات جبالا حمراء .

كل هذا الجمال المتناثر فى أنحاء العالم ذكرنى بأن أحد الشعراء قال بأن الحواس المعتبرة بأنها أبواب العقل ليست سوى السجن لقوانا الداخلية . فهو يقول بأنه لو لم تر عيوننا الجمال الحسى الذى يملأ الأرجاء لاستطاعت عيون خيالنا أن ترى الجمال غير المحسوس . وسواء أكان الجمال محسوساً أم غير محسوس فهو من النعم التى أغدقها الله على الناس ، والتى يليق بنا أن نمجده من أجلها .

على أن النشوة التى أحسست بها لمرأى كل آيات الجمال المحسوس كانت أقل عمقاً من النشوة الروحية الحقة التى تملكتنى حين ذهبت للصلاة فى كنيسة الروس المشردين - وهى كنيسة أرثوذكسية . لقد كانوا يصلون بلغة لا أفهمها ، ولكننى أحسست بتدفق ابتهالاتهم ، ورأيت عدداً غير قليل منهم يذرف الدموع أثناء الصلاة . إنهم « تركوا كل شىء وتبعوه » - تركوا الأوطان والأحباب ، كما تركوا الاستقرار والجاه لأنهم أبوا أن ينكروا إيمانهم . فهذا الإيمان الذى يثبت على الرغم من الأحداث بل بالحرى يعلو فوقها هو الإيمان الحقيقى الذى يعجب به جميع الناس فى أعماق نفوسهم على الرغم من كل المظاهر . وكم كانت صلواتهم هادئة خاشعة . أما ألحانهم وأصوات مرتليهم فليس من السهل وصفها . ويكفى القول بأنها كانت أصواتاً

عذبة ترتل ألحاناً سماوية ، وكانت أصواتا إنسانية خالصة غير مصحوبة بأية آلة موسيقية إطلاقا كما هو شأن جميع الكنائس الأرثوذكسية . فإيمانهم وحرارة صلواتهم وخشوعهم ودموعهم وألحانهم - كل هذه امتزجت وسرت إلى أعماق نفسي فملأتني بنشوة روحية عميقة ، ومكنتني من أن أدرك بأن جمال النفس الإنسانية التي تحاول التحليق هو أروع ما في الوجود من جمال .

ولا شك في أن ما بين هذه الكنيسة وبين كنيستي من تشابه في الشعائر قد زادني نشوة ، وعندها تمنيت على الله أن يعجل بذلك اليوم الذي أسمع فيه ألحان كنيستي ترتلها نخبة من أصحاب الأصوات الملائكية العذبة ويؤدونها جميعاً في نظام وهدوء يليقان ببيت الصلاة ويملآن السامعين نشوة وخشوعا .



الأيقونات فى كنائسنا

▲▲▲

ذهبت مرة لزيارة إحدى المنشآت الخيرية الجليلة ، وأراد القائمون بأمر هذه المنشأة أن يتفاخروا بالكنيسة الفخمة التى بنوها . فسرت معهم داخل الكنيسة أتأمل ما حوت من فن وما بذل فيها المؤمنون من جهد ومال . وحين دخلت المقصورة الخاصة بالمعمودية وجدت الصورة التى حلا للقبط أن ينقلوها عن الفنانين الأجانب من غير تفكير ولا تقدير . والصورة تمثل السيد المسيح واقفاً فى الماء الذى لا يغطى إلا قدميه فحسب ، بينما وقف يوحنا المعمدان على الشاطىء فبدا أطول قامة من المخلص وانحنى فوقه يرش على رأسه بعض قطرات من الماء ! والعجيب أننى حين لاحظت أن هــــذه الأيقونة لا تتفق وتعليمنا الأرثوذكسى الصميم قيل لى بأن هذه هى الصورة التى توافق المسيحيين على اختلاف مذاهبهم على جعلها الصورة الرمزية التى تصور لنا العماد . وتعجبت من هذا الرد لأننى رأيت بعينى رأسى صورة محفورة على باب كاتدرائية بيزا التى بنيت فى القرن الحادى عشر ، وهذه الصورة المحفورة على الحديد تبين لنا الفادى الحبيب وهو فى الماء ولا يظهر غير رأسه القدسى . وهذه الأيقونة التى تعبر عن إيماننا بأن المعمودية تغطيس قد رسمها فنان ايطالى ليزين بها كاتدرائية بيزا المشهورة بين الكاتدرائيات الإيطالية كواحدة من أجملها . وهى تبين لنا أن الكنيسة (فى الغرب كما فى الشرق) كانت لا تزال حتى القرن الحادى عشر تمارس التعميد بالتغطيس — وإلا لما أبرز لنا الفنان الإيطالى هذه الحقيقة فى الصورة التى حفرها على باب كاتدرائية بيزا .

والذى أريد أن أتساءل عنه أمران : الأمر الأول هو لماذا لا يعتمد الفنانون القبط على خيالهم الخاص ومزاجهم المكتسب من بيئتهم المصرية وتراثهم الذى أخذوه عن آبائهم ليرسموا لنا الأيقونات التى تبين لنا حقائق إيماننا الأرثوذكسى ؟ إن الآثار الفنية المتخلفة عن العصور القديمة تنطق لنا بما وصل إليه الفنانون القبط من مهارة فى التعبير ودقة فى الإخراج ، فلماذا يأتى القبط فى هذا القرن ويقلدون الفنانين الأجانب بدلا من تقليد الفنانين الأقباط ؟ وإن كانوا لا يثقون فى قوة خيالهم الخاص فلمَ لا ينقلون ما ابتكره خيال آبائهم بدلا من أن ينقلوا مبتكرات الفنانين الأجانب ؟

هذا هو الأمر الأول الذى كثيراً ما دهشت أمامه ، وتساءلت عن سببه من غير أن أصل إلى رد أو ربما وصلت إلى رد لا يشفى غليلى .

أما الأمر الثانى فهو : حين يرغب أحد القبط أن يهب هبة للكنيسة التى يذهب اليها فلماذا لا يتخير الشيء المناسب ليهبه ؟ لماذا لا يفكر (ولو قليلا) فى نوع الهدية وفى كونها مناسبة أو غير مناسبة ؟ إن الفرد منا متى أراد أن يهيء غرفة الاستقبال فى بيته فكر فى الأمر تفكيراً جدياً وحاول أن يقارن بين غرف عديدة قبل أن يقع اختياره فى النهاية على الغرفة التى اقتنع بأنها تناسبه . فلماذا لا يعطى جزءاً من هذا التفكير لما يريد أن يقدمه للكنيسة ؟ فإن شاء أن يقدم أيقونة هدية فلماذا لا يفكر فى بعض الفنانين القبط المستعدين لأن يرسموا له صورة ذات طابع قبطى صميم بدلا من أن يشترى أيقونة (جاهزة) أو بدلا من أن يزعم أنه فنان وينقل صورة عن فنان أجنبى ثم يقدمها ؟ قد يقول البعض أن السبب الأصلى لهذا التقصير هو المال — أى أن الأيقونة الجاهزة أو التى يرسمها هو بنفسه تكون أقل نفقة من الأيقونة التى يرسمها له الفنان . ولكن إن صح هذا على المنتجات الفنية التى يبتكرها

الأجانب فهو غير صحيح بالنسبة للفنانين القبط لسببين : أولهما أن القبطى يقدر ظروف مواطنيه ولا يشعر بالجشع الذى يشعر به الأجنبي ، وثانيهما أنه متعلق بكنيسته يحب هو أيضاً أن يساهم فى تقديم ما يستطيعه ليزينها . وأذكر على سبيل المثال (من غير ذكر الأسماء) أننى دخلت ذات يوم كنيسة جديدة لا تزال فى دور التكوين فرأيت صورة للعماد (جاهزة) هى نفس الصورة التى تتنافى مع تعليمنا الأرثوذكسى ، فقلت لأبينا الكاهن : لماذا رضيتم أن تعلقوا هذه الصورة مع علمكم بأنها مخالفة لتعليمنا ؟ أجابنى : « بصراحة لم أستطع أن أرفضها كى لا أخجل الذى قدمها » . قلت : « ألم يكن فى الإمكان أن تلفت نظره إلى ما فيها من مخالفة ؟ » قال : « ولو فعلت ذلك فمن أين يحصل على صورة أرثوذكسية ؟ » وهنا ذكرت لأبينا القمص اسم شاب فنان اختص برسم الصور الدينية المبتكرة فلم ينقل فى يوم ما صورة رسمها غيره . وكانت إحدى أيقوناته صورة للعماد وقد رسم فيها الفادى الحبيب داخل مياه الأردن لا يبدو منه غير رأسه القدسى وقد امتد شعاع من نور من رأسه حتى السماء وفى آخر هذا الشعاع النورانى بدت الحمامة البيضاء الجميلة التى هى رمز للروح القدس . ومن دواعى السرور أن هذه الصورة تزين الآن كنيسة أبى السيفين بعزبة منصور (فى حدائق القبة) . وحبذا لو أن جميع المهتمين بالتقدمات الكنسية يقتدون بهذه القدوه فيصلون إلى هدفين فى آن واحد : الهدف الأول الأيقونات التى تزين كنائسنا تصبح أيقونات تتفق وتعاليم آبائنا الأماجد . والثانية أننا نشجع فنانينا ونستنهض هممهم فيزدادون إنتاجاً . وحبذا لو صحت الأحلام .

▲▲▲

قادنى المطاف إلى ضاحية من الضواحى النائية — هى أبو قير التى كانت محط رحال أباكير ويوحنا أخيه . وفى تلك الضاحية التى يسودها السكون

الشامل ذهبت إلى الكنيسة ، وإذا بى أرى صورة للمخلص الحبيب وعلى صدره قلب يحيط به إكليل من الشوك . تأملت هذه الصورة ملياً — صحيح أن وجه الفادى كان عليه مسحة من الحنان ولكن الصورة فى حد ذاتها تتعارض مع تعاليم كنيستنا العزيزة المجيدة لأن آباءنا نادوا بأن السيد المسيح وحدة كاملة ، تامة الكمال . فهو لذلك يبدو فى شكله الكامل لا فى شكل مصطنع . والكمال الإنسانى معناه الصورة الطبيعية التى نعرفها فى أنفسنا — إذ شابهنا فى كل شىء ما خلا الخطية — وهو لذلك يجب أن يبدو أمامنا وقلبه مختفٍ داخل صدره كقلوبنا .

تأملت هذه الصورة ، ومر فى خاطرى الصور العديدة المصطنعة الرخيصة التى تمتلىء بها كنائسنا والتى لا تعبر عن عقيدتنا ولا مزاجنا لأنها دخيلة علينا . وفى تأملى لهذه الصور ، وفى خيالى لكل الصور التى لا صلة لها بفننا رنت فى أذنى كلمة قالها جوليان هكسلى العالم الانجليزى الذائع الصيت وهى : « إن الكنائس الحديثة التى يبنيها الأقباط فى هـــذا العصر قبيحة للغاية لا صلة لها بالفن القبطى مطلقا » ـ أى نعم أيها القبط فافتحوا آذانكم واسمعوا هذا الحكم الذى يصدره رجل غريب : « ان كنائسنا الحديثة قبيحة لا قبطية ! » ولقد أيد هذه الملحوظة مستشرق أيرلندى زار بلادنا المحبوبة فى السنتين الأخيرتين . فلما دخل بعض كنائسنا الحديثة (ولا داعى لذكر أسمائها هنا) وتلفت حوله فى الصور وكيفية البناء قال فى دهشة مشوبة بشىء من السخرية : « ماذا دهاكم أيها الأقباط حتى نسيتم فنكم إلى هذا الحد ؟ ألم يعد فى وسطكم فنان ؟ إننا فى أيرلندا نحاول الاحتفاظ بالطابع الأصيل حينما نريد بناء كنيسة ، والطابع الأصيل عندنا مأخوذ عن الفن المعمارى القبطى . أما أنتم فنسيتم فنكم ونسيتم أن فنانيكم قد أعطوا العالم الصورة الصحيحة للفن المصرى ، وجريتم وراء

فنون غريبة متنافرة فجاءت كنائسكم مشوشة قبيحة ! ، هذا هو حكم الأجانب الذين درسوا فنوننا ودرسوا تاريخنا . وهو حكم لا شك قاس ولكنه الحقيقة المريرة . فلا نوجد بين الكنائس التى شيدت فى العشرين سنة الأخيرة (أو أكثر من العشرين سنة) كنيسة واحدة يحكم الناظر إليها من أول نظرة أنها كنيسة قبطية . فالبناء لا — قبطى ، والصورة المعلقة داخله لا — قبطية ! ومثل هذا الحكم اللاذع يجب أن يوقظنا مما نحن فيه من غفوة ، ويجب أن يهزنا فندرك عظم التراث الفنى الذى خلفه لنا آباؤنا ، وندرك أن واجبنا يحتم علينا الاحتفاظ به . إذ أنه من الغريب أن يستسيغه الأجانب والمتعلمون ويحاولون حفظه ، بينما نتناساه نحن وننقل الفن الرخيص الذى ينتجه تجار أجانب .

وكبحت زمام تأملاتى وخيالى وأعدتها إلى الإصغاء للقداس فلما انتهت الصلاة أبديت ملاحظاتى للقائمين بأمر الكنيسة فى أبى قير . وكم كان فرحى عظيما إذ قيل لى : « اطمئنى ففى شهر من الزمان ستكون كل هذه الصور الدخيلة المزيفة قد رفعت من هذا المكان لتحل محلها أيقونات قبطية صميمة ابتكرها فنان قبطى صميم واستوحى عقيدتنا الارثوذكسية ومزاجنا المصرى فوضع صوره فى قالب مصرى بحت يدرك الناظر إليها من أول نظرة أنها أيقونات مصرية » .

فرحت لهذا الخبر فرحاً عظيما إذ وجدت أن القبط قد بدأوا يدركون أن لهم فناً يعبر عن مشاعرهم كما يعبر عن تقاليدهم وعقائدهم . فرحت لأن قوميتنا قد صحت فينا وتنبهت فأدركنا أن بيننا فنانين هم أولى بالتشجيع وأولى بأن يزين فنهم كنائسنا لأنهم إخوتنا تختلج نفوسهم بالمشاعر التى تختلج بها نفوسنا ويدينون بالولاء للأم الواحدة التى هى كنيستنا المصرية الصميمة .

ولقد ازددت فرحاً إذ علمت أن الفنان المنشغل بإعداد الأيقونات

الكنيسة أباكير ويوحنا بأبى قير هو أحد الفنانين العاملين فى معهد الدراسات القبطية العليا بالأنبا رويس . فالمعهد قام ليعيد للأقباط أمجادهم الروحية والفكرية والفنية ، وليذكر الأبناء بمآثر الآباء .

وفى غمرة الفرح قلت: إنه لم يعد للقبط عذر فى التنكر لأمجادهم : فالفنانون موجودون والمهندسون موجودون ، ومعهد الدراسات على أتم استعداد لتقديم هؤلاء وأولئك لمن لا يعرف مكانهم . والفنانون والمهندسون على أتم استعداد لأن يضعوا مواهبهم تحت تصرف كل قبطى يريد الاحتفاظ بالطابع المصرى البديع حين يفكر فى بناء كنيسة .

لقد كان للقبط — حتى فى العصور الوسطى ـ التى نزعم نحن أنها عصور متأخرة ـ فنانون ائتمنهم الولاة على بناء المساجد وتزيينها . وحين أراد بدر الجمالى أن يبنى سور القاهرة ببواباته الأربع التى من بينها باب زويلة ، طلب من راهب قبطى أن يضع له التصميم اللازم لهذا العمل العظيم ! وليس من شك فى أنه لا يزال بيننا فنانون يستطيعون أن يجعلوا من كنائسنا شواهد حية على قوميتنا . فجدير بالقبط حين تفكر أية جماعة منهم فى بناء كنيسة ، أن يتجهوا نحو الفنانين الأقباط . وإن كانوا لا يعرفون أسماءهم أو عناوينهم فما عليهم إلا السؤال عنهم من معهد الدراسات القبطية العليا بالأنبا رويس . وليطمئن القبط إلى أن الفنانين والمهندسين القبط سيكونون أكثر قناعة من الأجانب . وعند ذاك تبدو كنائسنا فى صورتها المصرية الصميمة ، فيعبر مبناها عن تلك الروح القديمة الممتلئة حيوية رغم قدمها . وبذلك يعمل الأقباط فى القرن العشرين على استعادة أمجادهم الفنية التى أعجب بها العالم وقدرها خير تقدير .



المعترفون

كانا يعرف الشهداء ويذكرهم ، وكثيرون منا لا يضيعون فرصة ليتباهوا فيها بأنهم أولاد الشهداء الأمجاد ـ وهذا حق إن هو أدى إلى استثارة المتباهين إلى الجهاد ليكونوا خليقين بأولئك الآباء الذين يفخرون بهم .

إلا أن القليل منا يعرف مَن هم المعترفون ـ وهؤلاء المعترفون قد قاسوا الهول ورضوا بكل تعذيب ولكنهم لم يدفعوا حياتهم ثمناً لإيمانهم . وهؤلاء المعترفون أبطال أماجد لأنهم تحملوا الآلام واستهانوا بالضيقات وعاشوها يوما بعد يوم من غير تراجع . فحق لنا أن نعرف بعضاً من هؤلاء الأبطال الذين استطاعوا أن يقهروا طبيعتهم البشرية المليئة بالمخاوف ، لأننا مع بطولتهم ، ومع ما تحملوه من صنوف التنكيل ، ومع شعورهم بخيبة الأمل لأنهم لم ينالوا اكليل الشهادة ، فإننا الآن لا نعرف عنهم شيئا ـ بل ولا يعرف غالبيتنا معنى كلمة « معترفين » فوجب علينا أن نؤدى تحية الإجلال والعرفان بالجميل نحو هؤلاء المتفانين فى الجهاد ، كما وجب علينا أن نعرف بعضاً منهم ، لنجعل منهم نوراً يضيء طريقنا فى هذه الأيام .

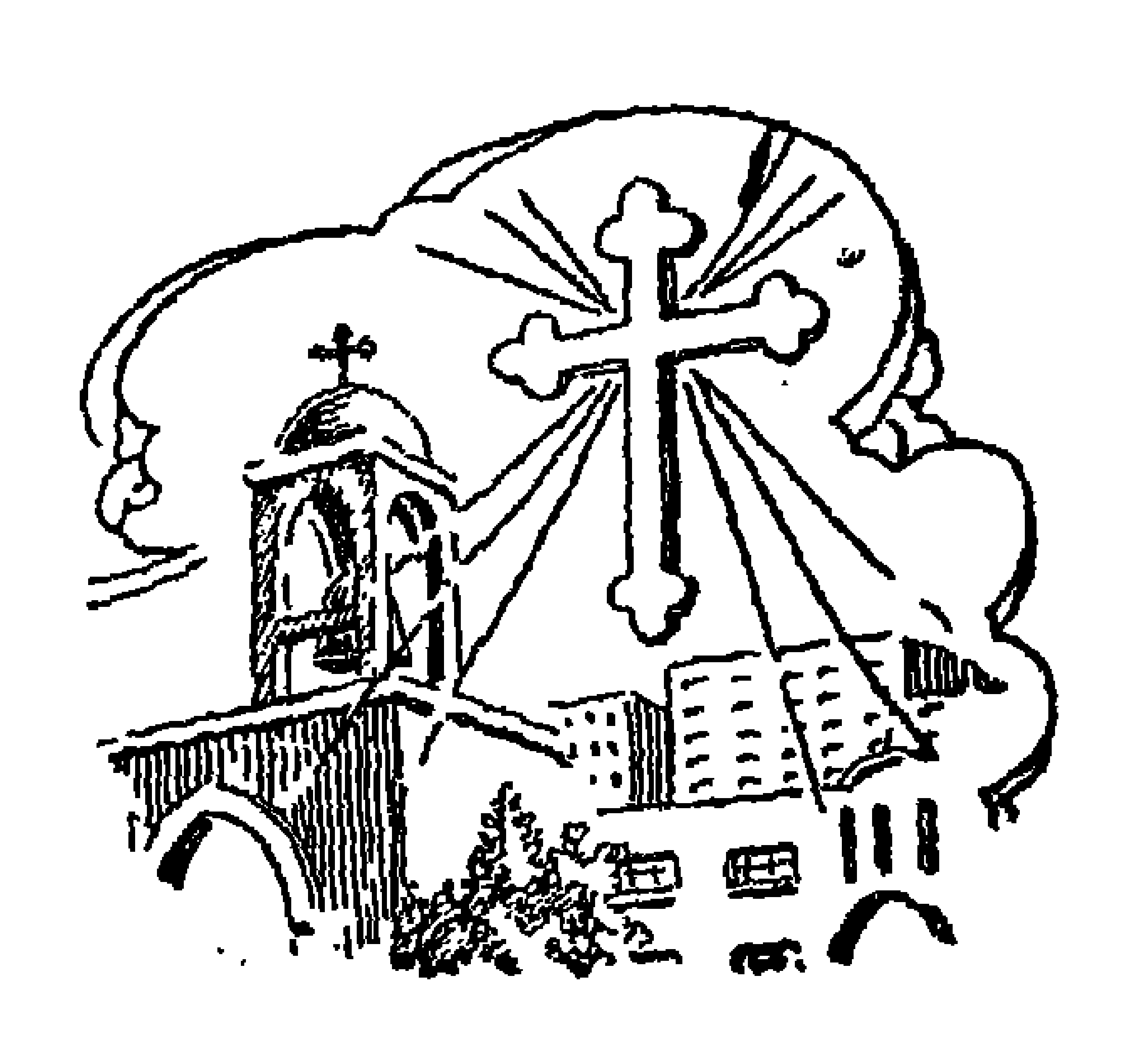
وفى طليعة هؤلاء المعترفين فى العصر الرسولى الأنبا بفنوتى أسقف طيبة (الأقصر) . كان هذا القديس فى شبابه من المتأملين فى الإلهيات ، فقال فى نفسه « إن كانت السماء هدفنا ، وإن كنا فى هذه الدنيا غرباء ونزلاء ، فلأعد نفسى من الآن لبلوغ السماء التى إليها مرجعى » وقام لساعته فقصد إلى الصحراء حيث تتلمذ للقديس أنطونيوس أب الرهبان ، ولم يلبث أن اشتهر بتقواه وجده وانكبابه على مطالعة الأسفار الإلهية حتى وصفه زملاؤه النساك بأنه « الهيكل الحى للحكمة الإلهية » .

وقد حدث ذات يوم أن تأذى بعض النساك من واحد منهم لذنب ما . وكان هذا الناسك يدفع عن نفسه ما يتهمونه به . فلما رآهم بفنوتى يشددون على زميلهم الخناق روى لهم المثل التالى : « غاصت قدم أحد الرجال فى الوحل وهو واقف على شاطىء النهر ، فمرّ به بعض الناس وأرادوا أن ينقذوه ، ولكنهم كانوا سبباً فى زيادة غوص القدم فى الوحل» ففهم النساك مما رواه لهم بفنوتى أنه يرى وجوب التساهل مع ذلك الناسك . فصفحوا عنه وأخذوه معهم إلى معلمهم الأنبا أنطونيوس وقصوا عليه كل ما جرى ، فقال أبو الرهبان عن بفنوتى : « إنه الرجل الذى أوتى من الحكمة السماوية ما يجعله أهلا لأن يحكم بالعدل والقسطاط » .

ولقد شاءت العناية الإلهية أن ينتخب الناسك بفنوتى أسقفا على طيبة عاصمة الصعيد يومئذ فتفانى فى خدمة كنيسته وتعليم أبناء رعيته . وظل فى عمله هذا حتى ثارت ثائرة الامبراطور مكسيميانوس (شريك دقلديانوس وخليفته) على المسيحيين فصب جام غضبه على أهل الصعيد ، وامتدت يده الأثيمة إلى الأسقف بفنوتى فسجنه ثم أمر بقلع عينه اليمنى وبتر ساقه اليسرى ولم يكتف الامبراطور بهذا كله بل أمر جنده بأن يسوقوا مئة وثلاثين من المعترفين وعلى رأسهم الأسقف بفنوتى إلى المحاجر لتسخيرهم فى قطع الأحجار مع جلدهم بالسياط . على أن جميع هذه العذابات لم تكن لتثنى هذا الأسقف عن عزمه . فقد كان فى كنيسته كالطود الراسخ ، وكان يقف وسط المعترفين يصلى معهم ولأجلهم فيعطيهم المثل الحى عن الثبات ويبين لهم مصدر القوة الحقيقية . وهكذا استطاع أن يثبتهم على الايمان رغم الآلام والأهوال . . وقد حباه الله موهبة شفاء المرضى وأجرى على يديه من الآيات والعجائب ما زاده إجلالا وتعظيما فى قلوب الناس .

..ثم انتهى الاضطهاد وعاد المعترفون إلى بلادهم . ولما عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ (وهو المجمع المسكونى الأول) كان الأنبا بفنوتى ضمن أعضائه الثلاثمائة والثمانية عشر وقد بلغ من احترام الامبراطور قسطنطين له وتقديره إياه أنه كان يستشيره فى جلائل الأمور . وفى كل مرة كان يقع نظره عليه كان يتقدم فى وقار ويقبل موضع العين اليمنى التى قلعت فى سبيل الايمان ...

ومن نعم الله على كنيسته أن أطال فى حياة الأنبا بفنوتى الذى ما أن عاد من مجمع نيقية حتى عاود جهاده فى تدعيم الايمان ، فكان خير معوان للأنبا أثناسيوس الرسولى فى جهاده المتواصل ضد البدعة الأريوسية .



الحكمة من التقاليد

الأمم كالأفراد ـ لكل منها مزاجها الخاص وميولها الخاصة وتطورها الاجتماعي . فالأمة في مجموعها كالافراد تماما : تنشأ وتنمو وتصل إلى القمة ثم تهبط . ولكن ناموس الفناء ليس مطلقا على الامم كما هو على الافراد . إذ أن التاريخ ينبئنا بأقوام انقرضوا وتلاشوا بينما ظل غيرهم باقيا ـ بعد أن سقط مراراً . فنسمع عن الحثيين ولكننا لا نرى لهم اليوم بقية .

أما مصرنا العزيزة فقد قامت وسقطت عدة مرات ، وكلما سقطت زعم خصومها أنها انتهت ولكنهم ما لبثوا أن رأوها تقوم وتنهض من جديد بحيوية متجددة تنطبق عليها الآية الكتابية القائلة : «يتجدد مثل النسر شبابك» . ومن هنا يتضح لنا بجلاء أن لكل شعب طابعه الخاص الذى يميزه عن بقية الشعوب .

ولما كان لكل شعب ميزاته الخاصة فقد اتخذ طريقه فى الحياة بما يتلاءم وهذه الميزات ـ فاختلف فى تطوره الفكرى والروحى لهذا السبب . وهكذا نرى الكنيسة المصرية الأرثوذكسية قد سارت فى طريق يخالف ما اختطته غيرها من الكنائس . وطريقها هذا لا يخالف المنهج الذى سلكته الكنائس التى لا تتفق وإياها فى العقيدة فحسب بل هو يخالف طرق غيرها من الكنائس الأرثوذكسية أيضاً . لأن المزاج المصرى يختلف عن المزاج اليونانى وعن غيره من أمزجة الشعوب الشرقية . فمع أننا نؤمن بعقيدة أرثوذكسية تشاركنا فيها الكنيسة اليونانية واخواتها من كنائس الشرق الأرثوذكسية إلا أننا نختلف وإياهم فى تقاليد الكنيسة وفى إدارتها .

ومن بين التقاليد المميزة لكنيستنا تلك التقاليد الخاصة بالكهنوت فلقد نادت كنيستنا بأن البطريرك (أو الأسقف) هو زوج كنيسته .

لذلك نجد المخطوطات القديمة حين تتحدث عن انتقال الآب البطريرك تعبر عن هذا الأمر بقولها : « لما ترملت الكنيسة » ولما كانت المسيحية تؤمن بوحدة الزوجية فقد جرت كنيستنا منذ عصورها الأولى على مبدأ التزام الكاهن لكنيسته والمطران لإيبارشيته . فلم تنظر إلى الكهنوت على أنه وظيفة يجوز لحاملها التنقل والترقى بل عدته سراً مقدساً وكرامة وموهبة من الله - جل اسمه - فأكدت بأن من يرسم على مذبح يكرس حياته كلها لخدمة هذا المذبح . ولهذا السبب نجد فى المخطوطات القديمة أن الجزء الأول من الصلوات الخاصة برسامة المطران يتلى فى الكاتدرائية الكبرى ، والجزء الثانى يتلى فى مقر المطرانية حيث يتسلم الحبر الجديد مفتاح كنيسته لأنه من خلفاء الرسل الذين تسلموا مفاتيح ملكوت السموات من رب المجد نفسه .

وهذا التقليد المصرى الصميم يحتم على الكاهن (أياً كانت رتبته الكهنوتية) أن يكرس حياته للكنيسة التى رسم عليها لأنه قد تجند للمسيح الذى ائتمنه على خدمة خاصة هى خدمة مجموعة معينة من أبناء الكنيسة الجامعة .

وبهذا التقليد الروحى وضعوا سياجاً حول من يتجمل بالكهنوت . وهم يهدفون من وراء ذلك إلى أن يعصموه مما قد يساوره من طمع .

كذلك جعلت الكنيسة للمطران فى ايبارشيته نفس السلطان الذى يتمتع به البطريرك فى مقر كرسيه . وليس لمطران حق التدخل فى ايبارشية أخيه فى الخدمة الرسولية إلا بالمودة والتراضى . بل لقد حرص آباء الكنيسة على كرامة المطارنة إلى حد أنهم لم يسمحوا حتى للآب البطريرك نفسه بالتدخل فى شئون الايبارشيات إلا فى المسائل الكبرى إذا حاد المطران عن الطريق القويم - وعندها يعقد مجمعاً للنظر فى أمره . أى أنه لا يملك حق النظر فى شأن المطران بمفرده إذ لا تعترف الكنيسة القبطية بسلطة فردية .

والحكمة من هذه التقاليد جميعها هى الاحتفاظ بكرامة الكهنوت وصون هذه الكرامة صيانة تامة .

ولقد دلت التجارب المؤلمة التى قاسيناها على أن حكمة هذه التقاليد لا تزال حقيقة راهنة ، وأن تفريطنا فى الاحتفاظ بما رسمه لنا الآباء هو السبب فى كل ما نعانى من اضطراب .

وإن حاول البعض منا تبرير هذا العبث بتقاليدنا بحجة أن الكنائس الأخرى انتهجت منهجاً مخالفاً لمنهجنا منذ البداية لأجبناهم بأنها فعلت ذلك لاختلاف عنصرها وظروفها وميزاتها . وأننا يجب أن نحافظ على تقاليدنا لأنها جزء من شخصيتنا ومن قوميتنا الخاصة . فتفريطنا فى تقاليدنا يحمل معنى التفريط فى قوميتنا والتسليم بجزء من شخصيتنا .

ولقد حرص آباء الكنيسة على التقاليد مع احتفاظهم بأواصر المحبة القائمة بينهم وبين اخوتهم من آباء الكنائس الأرثوذكسية الأخرى . لأنهم كانوا معتزين بانتمائهم إلى هذه الكنيسة المصرية الصميمة التى دعموها بدمائهم . وكان فى إمكانهم أن يتجنبوا الشىء الكثير مما أصابهم من بلايا لو أنهم تهاونوا قليلا فى تعاليم كنيستهم وتقاليدها . ولكنهم قبلوا كل عذاب وكل ألم — بل قبلوا الموت الموجع — قبلوا هذا كله عن رضى فى سبيل الاحتفاظ بكل ما تسلموا من تعاليم ومن تقاليد .

ونحن — إن كنا نعتز بكنيستنا التى نبتت فى أرض مصر وغذتها العقول المصرية وروتها الدماء المصرية — فعلينا أن نتمسك بتراثنا الروحى المجيد كاملا ، وأن نسعى إلى إدراك ما فيه من حكمة فى دعة وخشوع . وحينذاك ستنكشف لنا الحقيقة الرائعة وهى أن هذا التراث الروحى المجيد هو أثمن ما فى الوجود ، وهو كنز يفوق كنوز سليمان فى كل مجده .

لماذا نتمسك بتقاليدنا ؟!

إن الله ـ جل اسمه ـ حين خلق الأكوان وأبدعها أراد فى شامل حكمته أن يجعلها متنوعة متعددة : فالناس على أجناس وأديان ، والحيوانات على فصائل وأنواع ، والنبات على ألوان وأشكال . وهذه الإختلافات التى لا تحصى مما يجعل الخليقة شيقة ويزيد الحياة متعة . ولا يمكن أن يتصور إنسان منا ما كان يعترى الحياة من ملل لو أن كل ما فيها كان ذا شكل واحد ولون واحد ونوع واحد !

ولأن مبدع الأكوان أحب التنويع فإنه جعل لكل نوع من أنواع المخلوقات مميزات خاصة به . ومن هنا نرى أن لكل أمة قوميتها واتجاهاتها وآمالها .

وقد تتفق الشعوب فى ماهية المثل الأعلى ولكنها تختلف فى الوسائل المؤدية إليه وفى تفسير معانيه ومداه ، وهذا الاختلاف راجع إلى مزاج الشعب ووراثته ونزعاته وإحساساته . فالمسيحية مثلا قد انتشرت بين شعوب عديدة . ولكن هذه الشعوب التى تؤمن بالمسيح الواحد تتجه إليه بطرق مختلفة ــ فيسعى كل شعب للوصول إلى الكمال المسيحى عن تفكيره الخاص وبيئته الخاصة واتجاهه الخاص وقوميته الخاصة ، وهذه الصفات الخاصة دفعت بالشعوب التى تدين بالمسيحية إلى أن ينظم كل منها حياته الدينية بما يتفق وهذه الصفات . ونظرة واحدة على المذاهب المسيحية العديدة تكفى لتوضيح هذه الحقيقة . إذن فالكنيسة القبطية الأرثوذكسية هى وليدة البيئة المصرية والمزاج المصرى والنزعة المصرية ، أو بمعنى أدق هى وليدة القومية المصرية ، لأن الذين

فكروا فيها وأحبوها ووضعوا نظمها هم مصريون من صميم هذه التربة المصرية العزيزة التى تتكون من أجساد آبائهم وأجدادهم على مر العصور .

وما دامت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هى النتيجة الحتمية للقومية المصرية تمسك بها القبط وذادوا عنها وتفانوا فيها وفنوا فيها . وهذا هو السبب الأساسى الذى يجعلنا نتمسك بها ولا نرضى عنها بديلا .

وإننا ـ معشر القبط الأرثوذكسيين ـ لو تأملنا تاريخ كنيستنا المحبوبة لما اكتفينا بالتمسك بها وبتعاليمها وطقوسها بل لفاخرنا بها . ذلك لأن هذه الكنيسة العريقة التليدة قد أعطت الشعب حقوقه كاملة .

فالشعب له أن يبدى رأيه صريحاً فى كل الأمور الكنسية من أهمها إلى أتفهها . وله الحق أن يختار رئيسه الأعلى وآباءه على مختلف درجاتهم . بل لقد قال الأنبا ثيوفيلس الكبير (البابا الاسكندرى الـ ٢٣) أن للشعب وحده حق التزكية وللأساقفة وضع اليد عند اختيار الرعاة ـ سواء فى ذلك الكهنة والأساقفة والبابا . والأنبا ثيوفيلس الذى قال هذا كان من أبرز العلماء المصريين الذين ساسوا الكنيسة القبطية ، وكان خال الأنبا كيرلس عمود الدين ـ فكلماته بسلطان .

وهذا الحق الذى منحته كنيستنا للشعب من أكبر الأسباب التى تجعلنا نزهو بها لأن الشعوب كافحت ـ ولا تزال تكافح فى سبيل حقوقها الدينية والمدنية . أما القبط فقد نالوا هذا الحق بحكمة آبائهم ومن غير أن يكافحوا فى سبيله .

والحكم الديمقراطى لم تصل إليه الشعوب إلا بعد جهاد طويل مرير — أما كنيستنا فمنذ البداية اتخذت الحكم الديمقراطى وسيلة لتوطيد أركانها وليس

من شك فى أن وسيلتها هذه جعلت الشعب يحبها ويتعلق بها . وليس من شك أيضاً فى أن القبط يجاهدون ليصونوا هذا الحق الجليل الذى ورثوه عن آبائهم جيلا بعد جيل ، وأن الذى يفرط فى مثل هذا الحق فى قوميته وفى مصريته إنما يفرط فى تراث مصرى عريق .

ومما يجدر ذكره هنا حادثة طريفة عن سيدة من أهالى الأقصر . هذه السيدة تلقت العلم فى مدرسة الأمريكان وكانت ضمن التلميذات الداخلية لأنها التحقت بمدرسة فى القاهرة . ولما كانت قد التحقت بهذه المدرسة وهى صغيرة السن ، وبفعل التأثير المتواصل نهاراً وليلا انضمت إلى مذهب معلماتها الأمريكيات زعماً منها أنها لن تتنكر لدينها . ومرت الأيام ونالت الشهادة وعادت إلى أهلها فى الأقصر ، ولم تكد تستقر فى هذه المدينة الأثرية حتى عادت إلى الكنيسة القبطية من تلقاء نفسها . وحين سئلت عن السبب أجابت : « لقد أحسست وأنا أرى حولى هياكل الفراعنة أننى جزء من هذا التاريخ ، وبالتالى أحسست أن الكنيسة المصرية هى أيضاً جزء من هـــذا التاريخ . فكانت النتيجة الحتمية لهذا الإحساس أنه يجب علىّ أن أظل وفية لهذا التراث المصرى بأكمله فأنضم إلى الكنيسة التى هى جزء من القومية المصرية . فنحن نتمسك بتقاليدنا الكنسية الأرثوذكسية لأنها جزء من قوميتنا المصرية : فكرت فيها عقول مصرية وأحبتها قلوب مصرية واستشهد فى سبيلها أبطال مصريون .



التقليد الكنسي القبطي
في اختيار البابا الأسكندري

▲▲▲

حين التأم مجمع نيقية ـ المجمع المسكوني الأول ـ سنة ٣٢٥ م . غ اتفق الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا إذ ذاك على إسناد الرياسة لهوسيوس أسقف قرطبة . ولم تكن قرطبة يومذاك عاصمة الامبراطورية ولا حتى عاصمة أسبانيا ـ غير أن الأساقفة في ذلك القرن الرابع كانوا لا يزالون متمسكين بتعاليم الفادي الحبيب الذي أعلن بأن من أراد أن يكون عظيما فليكن خادماً. فلم يقم بينهم نزاع على أولية ولا على رياسة . وفي هذا المجمع المسكوني الأول ـ وهو أعظم المجامع المسكونية بلا جدال ـ قرر الأساقفة بأنه لا يجوز لأسقف أن يستبدل أسقفيته بغيرها، ولا أن يطمع في أسقفية أكبر جاهاً أو مالا لأن الأسقفية شرف في حد ذاتها ولا ترتكز على مكان ما .

وحدث في المجمع المسكوني الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة ٣٨١م. غ أن أثير موضوع الأولية بين الأساقفة . وعقب ، هذا النزاع في مَن الأعظم قال القديس غريغوريوس النزينزي : « ليته لم يكن بين كراسينا كرسي ممتاز ولا مكان محظوظ ولا رياسة استبدادية ، وأننا لم نشتهر بغير الفضيلة» . وكان من أثر الخلاف حول الأولية والمكان الممتاز أن انسحب الأنبا تيموثاؤس (البابا الأسكندري الـ ٢٢) من المجمع . لأن الكنيسة القبطية كانت ـ ولا تزال ـ متمسكة بقوانين مجمع نيقية إذ أنها تؤمن بأن السلطة العليا في المجموع لا في الفرد ، وعلى هذا الأساس جعلت للمجمع سلطانا على البابا

وجعلت حكم المجمع الحكم الذى يجب أن يخضع له الجميع ومن بينهم البابا نفسه . وعلى هذا الأساس أيضاً قررت الكنيسة القبطية انتخاب باباواتها من بين الرهبان ، لأن البابا ليس سوى أسقف المدينة الرئيسية فهو بمثابة الأخ الأكبر بين إخوته .

ولما كانت كنيستنا المصرية تسير على المنوال ، الذى وضعه لها آباؤها العلماء فقد ظلت محتفظة بمبدأ انتخاب باباواتها من بين الرهبان . ويقول لنا المستشرق الفرنسى فى مقدمة ترجمته لحياة الأنبا إيساك (البابا الأسكندرى الـ ٤١) - يقول ما نصه :

« ليس مسموحا لأسقف أن ينتقل من كرسيه إلى عرش بابوى لأن الكنيسة القبطية ظلت أمينة على هـذا التنظيم الذى سنه الآباء فى العصر الرسولى . ولهذا السبب كان رؤساء الأديرة إذا ما وجدوا بين رهبانهم شخصاً ممتازاً حرصوا على إخفائه عن الأنظار ، ورفضوا إظهاره حين يتقدم اليهم أهل إيبارشيته طالبين مرشحين للأسقفية . وكانوا فى الوقت عينه يشجعون القريبين منهم على التحدث بمواهب هذا الشخص الممتاز . وكثيراً ما كانوا يشيعون التنبؤات الخاصة بهم ، وكان الغرض الذى يهدفون اليه من مسلكهم هذا تهيئة القلوب لانتخابه خليفة لمار مرقس [1] » .

ويروى لنا الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين فى القرن العاشر (وكاتب سير البطاركة) إنه حين انتقل الأنبا جاورجيوس أسقف مصر إلى الأخدار السماوية (حوالى سنة ٧٧٠ م) أراد الأنبا يؤنس الرابع (البابا الأسكندرى الـ ٤٨) أن يرسم سكرتيره مرقس لهذه الكرامة العظمى تحقيقا لرغبة الشعب

---

(١) راجع مقدمة كتاب اميلينو « حياة إيساك بطريرك الأسكندرية » ص ٢٢ - ٢٣ .

الذى طلبه بالذات . غير أن مرقس هرب إلى الصحراء لأنه كان يزعم بأنه غير أهل لها . فاضطر الأنبا يؤنس الرابع إلى رسامة راهب آخر ولكنه حنق على سكرتيره مرقس .

وأحس الأب البطريرك بضميره يؤنبه لحنقه على سكرتيره ، فبعث برسالة إلى شيخ قديس متوحد فى منطقة البرلس يعترف له بما حدث . فرد عليه الشيخ يقول : « الأولى بك أن تفرح لمسلك سكرتيرك ، لأننى علمت بالروح أن الآب السماوى قد حفظه كى يجلس فى حينه الحسن على السدة المرقسية ويخلفك فى رعاية شعب المسيح . ولو أنه خضع لما اخترته له لأضاع فرصته ولحاد عن التدبير الإلهى الذى أعده له الخالق » .

فلما وصل هذا الرد إلى الأنبا يؤنس الرابع فرح فرحاً عظيما وأحس بأن عبئاً ثقيلا قد سقط من على كتفه ثم بعث برسله إلى الصحراء يبحثون عن مرقس ويبلغونه أن باباه يطلبه ليكون سكرتيره كما كان قبل هربه ، لأنه أعطى أسقفية مصر لغيره. فعاد مرقس معهم وعاود خدمة البابا الجليل . فلما انقضت السنون وأحس الأنبا يؤنس الرابع بأن ساعته قد دنت قال للأساقفة المحيطين به : « إن مراحم الله لانهائية يا إخوتى ـ فقد أعلمنى الروح بموعد انتقالى من هذا العالم وبمجىء والٍ جديد إلى مصر يحبنا ويقدرنا . فأرجوكم أن تكونوا حذرين فى اختياركم خليفتى » .

وأحس الأساقفة بالحزن لقرب انتقال أبيهم الروحى ولكنهم تمالكوا أنفسهم وقالوا له : « ما دام الرب قد أعلمك بساعة انتقالك فلابد أن يكون قد أعلن لك خليفتك أيضاً » . أجاب الأنبا يؤنس الرابع : « نعم قد أعلنه لى. إنه الراهب الذى شئت أن أرسمه أسقفاً فحفظه الله للبابوية . إنه مرقس سكرتيرى الأمين » .

وبعد أيام قليلة من هذا الحديث انتقل البابا الأسكندرى إلى مساكن النور فحمل الأساقفة والشعب بوصيته وانتخبوا مرقس خليفة له فأصبح مرقس الثانى الخليفة التاسع والأربعين لكاروز الديار المصرية .

وهذان دليلان فقط من الادلة العديدة التى تبين لنا بوضوح أن الكنيسة القبطية قد حافظت على مبدأ الآباء الذين شرّعوا القوانين ووضعوا التقاليد وأكدوا فى تشريعاتهم أن السدة المرقسية لا يعتليها غير الرهبان . وقد أقر الآباء هذا التقليد لا لأنهم أدركوا معنى العظمة الروحية وأدركوا وحدة الكرامة الاسقفية فحسب بل لأن إيمانهم بالله كان وثيقا أيضا . فهم كانوا ينتخبون الراهب (رغم وجود العلماء والقديسين بين المطارنة) لثقتهم فى أن الروح القدس متى حل على الراهب البسيط جعل منه شخصية ممتازة وأهّله لأن يرعى الشعب المسيحى بحكمة وسداد .



على ضفاف الأردن

▲▲▲

إنه من اللائق بنا فى هذا العصر الذى أخذت المرأة تظهر فيه فى كافة الشعوب ، أن نذكر أن المرأة فى الكنيسة المصرية تمتعت بمكانة ممتازة منذ العصور الأولى . وتاريخنا المجيد الطويل حافل بسير النساء المتعبدات اللواتى جاهدن الجهاد الحسن وأكملن السعى . وإننا لنجد بعض هؤلاء النسوة يعتزلن فى البرارى والقفار ، ويحتملن عيشة الزهد والتقشف ـ بل الحرمان من ضروريات الحياة نفسها ـ فى سعيهن نحو الكمال المسيحى . ومن بين هاته النسوة المتقشفات المتبتلات مارية المصرية .

ومارية المصرية هذه لها تاريخ عجيب . فقد قضت الشطر الأول من حياتها فى الخطية وفى الإيقاع بالرجال ـ لأنها كانت آية فى الجمال فامتلأت غروراً وسخرت هذا الجمال للشر . ولما بلغت التاسعة والعشرين من عمرها التقت ببعض المسيحيين الذاهبين إلى القدس للتبرك بزيارة القبر المقدس ، فذهبت معهم ـ لا لكى تنال البركة بل لتستمر فى شرورها . فقد دأبت على ارتكاب الخطايا واستمرأتها حتى وهى فى الأراضى التى تقدست بفادى البشرية . وذات يوم أرادت أن تدخل كنيسة القبر المقدس ، ولكنها أحست بقوة خفية جعلتها تتجمد فى مكانها . فاستغاثت بالسيدة العذراء قائلة . « أيتها السيدة العذراء ، يا من ولدت الله الكلمة ، إننى أعرف كل المعرفة أن امرأة مثلى ملوثة بالخطية لا يجوز لها أن ترفع عينها فى صورتك ، أنت أيتها الطاهرة

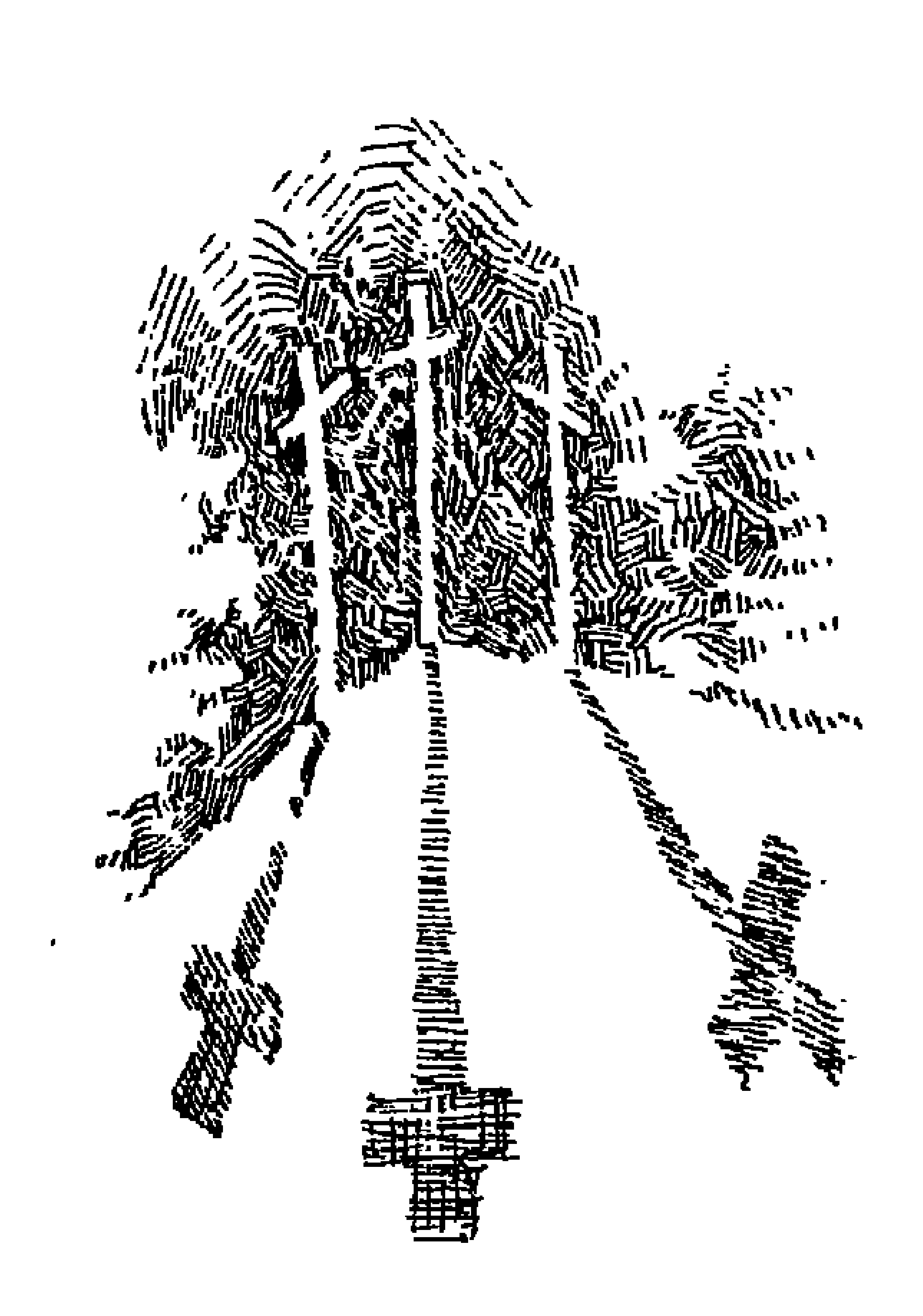
المقدسة ، ومن العدل أن تهمل من كانت مثلى . ولكننى أعلم من كل ما قرأته عن الإله المولود منك أنه إنما تجسد لإنقاذ الخطاة مثلى . فانقذينى مما أنا فيه ، إذ ليس لى من ينجدنى سواك ، ومرى يا سيدتى أن تفتح لى الأبواب الموصدة لأستطيع أن أسجد لصليب ابنك الوحيد ، وأنا أتخذك كفيلة لى عند الله الذى ولدته ، ولن أدنس جسدى بعد الآن . إذ قد عولت أن أهجر العالم بمجرد وقوع نظرى على خشبة الصليب المقدسة . وسأذهب حيث تقودينى أنت الكفيلة بخلاصى » . ولم تكد تنتهى من صلاتها حتى أحست بأنها تحررت مما هى فيه من شدة وألم ، وانفك الرباط الذى كان قد جمدها فى مكانها. فدخلت الكنيسة لساعتها طالبة من أم الرحمة أن تهديها إلى ميناء الخلاص. وحين قامت من سجدتها سمعت صوتاً يقول لها : « إذا عبرت نهر الأردن وجدت هناك السلام والخلاص » . فخرجت لفورها قاصدة إلى الأردن . وفى طريقها رآها أحـــد الحجاج فأعطاها ثلاثة دراهم ظناً منه أنها من المستجديات . فأخذت هذه الدراهم وابتاعت بها خبزاً وعبرت نهر الأردن. وفى الصحارى المحيطة بذلك النهر عاشت مارية سبعة وأربعين سنة قضتها سائحة هائمة على وجهها تقتات بما يصادفها من أعشاب .

وكان من عادة بعض النساك فى العصور الأولى للمسيحية أن يقضوا الأربعين المقدسة فى برية الأردن تشبها برب المجد . وكان من بين النساك المحتفظين بهذه العادة القس زوسيما . فذهب فى السنة الخامسة والأربعين لحياة مارية فى البرية إلى تلك الجهة ليقضى فيها أيام الصوم الأربعينى المقدس . وتصادف أن رآها هناك ووقف منها على تاريخ حياتها ، ثم رجت منه أن يعود إليها فى السنة التالية حاملا لها الأسرار المقدسة فوعدها بذلك . وبعد مضى تلك السنة وفّى بوعده وعاد إليها وناولها خبز السماء . وعادت فاستحلفته

أن يعود إليها فى السنة التالية فلم يتأخر عن العودة إليها . ولكنه - فى المرة الثانية - ألفاها قد فارقت الحياة ، ووجد إلى جانبها ورقة قالت له فيها : « أعد التراب إلى التراب يا أبى » . ووجد عند قدميها أسداً رابضاً . وحين همّ بحفر قبرها شاطره الأسد الحفر ثم عاد من حيث أتى . وبعد ذلك صلى على جثمانها الطاهر ثم واراها فى التراب باكياً مسترحماً ، ولما عاد إلى ديره قص على رهبانه سيرة هذه القديسة فنظموها فى سلك القديسين .

▲▲▲

وللقديسة مارية المصرية مقصورة خاصة فى كنيسة نوتردام بباريس ، ولها أيضا صورة رائعة فى متحف الفن بفيلادلفيا . فهى - فى هاتين المدينتين - رسول صامت يتحدث رغم صمته عن مصر وكنيسة مصر . وهذه الناسكة المصرية العجيبة لا تزال بعد خمسة عشر قرنا من انتقالها إلى الأخدار السماوية - تحمل شعلة مصر أمام الغربيين فتؤدى الرسالة التى تعهدت بتأديتها أمام السيدة العذراء حتى الآن .



الإيمان المنتصر

إن التاريخ يجب أن يكون سجلا للتطور البشرى فيروى قصص الأبطال (والبطلات) الذين حاولوا جهدهم ليرفعوا البشرية ويسموا بها ، ويحملوا أمامها الشعلة ويحطموا لأجلها القيود .

ومن هؤلاء الأبطال الذين استضاءت البشرية بنورهم القديسة سينكليتيكى التى يعدها البعض ندآ للقديس أنطونيوس كوكب البرية. فكما أنه أبو الرهبان فى مختلف البلاد هكذا كانت سينكليتيكى أماً لتلك المجموعة من العذارى الباسلات اللاتى جعلن من وادى مصر الخصيب بلاد النعمة الإلهية .

ولقد ولدت سينكليتيكى من أبوين شريفين تركا مسقط رأسيهما فى إحدى القرى المصرية ، واستقرا فى الاسكندرية ليكونا على مقربة من مدرستها العظيمة ، التى وطد أركانها أوريجانوس وخلفاؤه . وكان والدا سينكليتيكى قد أنجبا ولدين وبنتا غيرها . فأرادا أن يثقفاهم بأسمى أنواع الثقافات التى لم تكن متوفرة إلا فى المدرسة الاسكندرية ، وبالفعل ألحقوهم بتلك المدرسة الضخمة .

على أن غناهما وشرف محتدهما لم يصد عنهما الألم والفجيعة . فمات أصغر أخوى سينكليتيكى وهو بعد ولد . أما أكبرهما فقد انتقل إلى عالم الخلود ليلة زفافه فاستبدل أحلام العالم الفانى وآماله العابرة بأحلام العالم الباقى ونعيمه الأبدى . وكان من نتيجة هذه الفجيعة المزدوجة أن انطوت سينكليتيكى على نفسها ، وغاصت فى التفكير والتأمل ، وأصبحت مفاتن العالم ومباهجه فى نظرها سرابا خادعا . وحين كانت ترى الثياب الفاخرة والجوهرات النادرة التى كان أبواها يشتريانها لها كانت تشيح بوجهها عنها ، وتذكر نفسها بأن كل هذه المغريات أشبه بالدواء المسكن الذى لا يلبث من يتعاطاه أن يفيق فيزداد

شعوراً بالألم . وحين ملأت عليها هذه الخواطر أفكارها قررت أن تكرس حياتها لخدمة الله . على أنها أدركت فى الوقت عينه أنها لا تستطيع ترك أبويها لأنها إن تركتهما فستزيدهما حزناً على حزن ، وهى لا تقوى على ايلام قلبيهما الجريحين . فاستمرت تعيش فى البيت معهما ، ولكنها أعلمتهما بأنها ترغب فى الاحتفاظ ببتوليتها . وقد طلبا إليها فى بادىء الأمر أن تتزوج كى يتعزيا بتربية أولادها ، ولكنهما نزلا على رغبتها حين وضح أمامهما أنها صادقة العزم فى ما تنويه . وهكذا وضعت لنفسها نظاماً نسكياً تسير عليه بكل دقة واخلاص وهى مقيمة فى بيت أبيها . وامتلأت نفسها سكينة وسلاماً فانعكس على وجهها نور هذا السلام الداخلى .

وظلت سينكليتيكى مداومة على أصوامها وصلواتها ونسكها وتعبدها فى بيت أبيها إلى أن انتقل أبواها إلى عالم النور . وعند ذاك وزعت أموالها على الفقراء وأخذت أختها (التى كانت العضو الوحيد الباقى لها من أسرتها) وذهبت إلى مقبرة العائلة حيث عاشت بضع سنين ، وفى تلك الفترة ضاعفت أصوامها وصلواتها وتأملاتها . فبدأ عبير حياتها ينتشر فى الأرجاء إلى أن ملأ الاسكندرية ، ومن ثم جاء لزيارتها عدد غير قليل من الشابات : قصدها البعض لمجرد رؤيتها والبعض الآخر ليستفسر منها عن الحل لمشكلاته . وبالطبع تأثر بعض هاته الشابات فمكثن معها وشاركنها عيشة النسك والتأمل فتركت المقبرة وأخذت زميلاتها ليعشن فى بيت خارج المدينة . ولما رأت استعداد هؤلاء الشابات للسير بما توحيه إليهن كرست حياتها لخدمتهن وجعلت الأساس لتعليمهن تلك الآية التى هى أعظم الوصايا « تحب الرب من كل قلبك . . . وتحب قريبك كنفسك » . ولما كانت قدوة مثلى وصورة حية لما تنادى به من تعليم أحبتها زميلاتها وأخلصن لها الولاء وأولينها طاعتهن عن رضى وحبور .

ومرت السنون سراعاً ، مرت فى هدوء واستقرار وفرح روحى . وكان عدد الشابات اللواتى خضعن لرياستها يتزايد سنة بعد الأخرى ، وكان البعض منهن يتلقى تعاليمها فترة من الزمن يعود بعدها إلى بيئته يحمل إليها النور والنعمة.

وبلغت سينكليتيكى الثمانين من عمرها ، وكانت حتى ذلك الوقت تتمتع بصحة تامة ، لم يغير الصوم جمالها ولم ينقص السهر من روائها - بل لقد زادتها النعمة جمالا على جمال ، وخيل لها وللمقيمات معها أن حياتها ستنقضى على هذا الحال من الصحة والهناءة .

وفجأة أصيبت بمرض مزعج : فقد غطت القروح جسمها من رأسها حتى أخمص القدم . وكان هذا المرض شديد الوطأة عليها فأفقدها المقدرة على النطق ، ثم تضاعفت القروح إذ صحبتها حمى عالية موجعة . فكان صبرها على الألم شبيهاً بصبر أيوب لأنها تحملت كل ما أصابها بصبر وطول أناة . وفى أثناء مرضها عرفت مدى تفانى راهباتها لها ، فقد كرسن نفوسهن لرعايتها والاهتمام بها فى دعة وحنان .

وقبل انتقالها بأيام ثلاثة رأت جمهوراً من الملائكة والعذارى تقدموا إليها وقالوا لها : « يا سينكليتيكى لقد أتينا لندعوك فتعالِ معنا » . وما أن سمعت هذه الكلمات حتى تبدلت وكأنها شخص جديد . فأضاء نور حولها وشع من رأسها وعاشت ، بعد ذلك ثلاثة أيام استنار الراهبات خلالها بالنور السماوى المنعكس عليهن من رئيستهن المريضة ثم انتقلت إلى بيعة الأبكار فى هدوء المغيب .

ولقد أراد الأنبا أثناسيوس الرسولى أن يبين قداسة هذه الناسكة المكرسة فكتب سيرتها هو بنفسه — أى أنه كتب سيرة أبى الرهبان وسيرة أم الراهبات فبرهن بذلك على اعترافه بفضل الراهبات أسوة بتقديره للرهبان .

أم تقدر المسئولية

في سنة ٦٣٩ ش (٩٢٣م) انتخب القبط راهباً فاضلا عالماً من دير القديس مكاريوس الكبير وأجلسوه على السدة المرقسية ـ هو الأنبا مكاريوس الأول البابا التاسع والخمسون من باباوات الاسكندرية .

وكان أول عمل قام به هذا الحبر الجليل زيارة رعوية شملت جميع بلاد القطر المصرى . وقد بدأ رحلته بزيارة شبرا مسقط رأسه . ولما دخلها قصد إلى منزل والديه ليسلم على أمه التى كانت لا تزال على قيد الحياة الدنيا . وكانت مشتغلة بالغزل ساعة وصول ابنها إلى دارها . ولما لاحظ ابنها أنها لم تلاقه بما كان يتوقعه من ترحيب بالغ وفرح ظاهر ـ خيل اليه أن الشيخوخة أقعدتها وحالت دون معرفتها إياه . فقال لها : « سلام لك يا أمى ، ألا تعرفين من أنا؟ إننى ابنك ، وقد تركتك لأعيش راهباً بسيطا ، وهو ذا قد صرت خليفة لكاروزنا المحبوب . ألا يسعدك هذا يا أمى ؟ » ولما قال هذا رفعت عينيها إلى وجهه فراعه أن يرى دموعها تنهمر كالسيل وسألها : « ماذا بك يا أمى » أجابته : إنها لكرامة عظمى تلك التى نلتها وهى غاية فى السمو . ولكن مسئولياتها غاية فى الخطورة . وهذا ما يبكينى . فلقد كنت فى الدير راهباً بسيطا مسئولا عن نفسك . أما اليوم ـ وقد نلت هذا المنصب العظيم ـ فقد أصبحت مسئولا عن شعب الكرازة المرقسية فليس أمامى الآن يا ابنى وسيدى إلا أن أمزج دموعى بصلواتى ضارعة الى رب الكنيسة الذى منحك هذه الكرامة العظيمة أن يهبك من عنده نعمة تمكنك من القيام بما تقتضيه هذه الرعاية الخطيرة من مسئوليات جسام » .

وقد كان لهذه الـكلمات من الأثر فى نفس الأنبا مكاريوس الأول ما جعله يذكرها مدى أيام حبريته ليستمد منها القوة التى تخوله القـــدرة على القيام بواجبه الرعوى على الوجه الأكمل .

ولقد استطاع الأنبا مكاريوس الأول أن يقوم بزيارة رعوية ثانيـة خلال حبريته . وقد خص بالزيارة فى المرة الثانيـة أديرة وادى النطرون . وقد لاحظ أثناء هذه الزيارة أن رهبان دير القديس يؤنس تعوزهم كـنيسة وأنهم يضطرون لذلك أن يقصدوا إلى دير القديس مكاريوس الـكبير للصلاة فى كنيسته ، فشيد كنيسة فخمة فى دير القديس يؤنس وكرسها قبل العودة إلى الاسكندرية .

ومع أن مصر كانت فريسة لمطامع الحكام وأهوائهم فى أول رياسة الأنبا مكاريوس الـكبير إلا أن السلام لم يلبث أن ساد البلاد بهمة الأخشيد الذى أمسك بزمامها سنة ٦٥١ ش (سنة ٩٣٥م) .

فلما رأى الأنبا مكاريوس الأول السلام منتشراً فى ربوع البـلاد المصرية قام بتشييد كنائس عديدة ازدحمت جميعها بالمصلين .

وقد دامت حبرية هذا الأب الجليل عشرين عاما خدم فيهاشعبه بإخلاص زائد وبهمة لا تعرف الملل . وكانت الـكلمات التى سمعها من أمه فى مستهل رياسته حافزاً على الجهاد المتواصل لعله يبلغ ما كانت أمه ترجوه لأجله فيؤدى حساب وكالته فى ثقة أكيدة ونفس وادعة راضية .



صفحة من صلة مصر بأثيوبيا

فى سنة ١٠٨٤ اعتلى الأنبا ميخائيل الرابع السدة المرقسية . وحدث بعد انتخابه بما ينيف عن سنة أن فيضان النيل جاء ناقصا . وبالطبع أحدث نقصه شيئاً من الاضطراب فى قلوب المصريين . وكان يتولى أمر مصر إذ ذاك الخليفة المستعلى بالله (أحد الخلفاء الفاطميين) فداخله الشك فى أن تكون للأثيوبيين يد فى نقص الفيضان . ولما كان يعلم أن أثيوبيا خاضعة لخليفة مارمرقس فقد رأى أن يرجو من الأنبا ميخائيل أن يتوسط لدى ملك تلك البلاد . وبالفعل قابله وعرض عليه الأمر وأعطاه هدية ثمينة ليبعث بها اليه . على أن البابا المرقسى استحسن أن يحمل الهدية بنفسه . فسافر إلى أثيوبيا وقابل ملكها وقدم له هدية الخليفة المستعلى . ثم رفع البابا الصلوات الحارة ضارعا إلى الله أن يتفضل برفع الفيضان إلى مستواه الضرورى واشترك ملك أثيوبيا هو وأشرافه معه فى الصلوات . ولقد استجاب الآب السماوى ضراعة الأنبا ميخائيل والشعبين المصرى والأثيوبى فزاد النيل أذرعا ثلاثاً فى ليلة واحدة . وفرح الجميع بذلك. وكانت النتيجة أن توطدت العلاقات بين مصر وأثيوبيا من جهة ، ومن الجهة الأخرى توثقت عرى المودة بين الخليفة المستعلى وبين الأنبا ميخائيل الرابع. وظلت هذه المودة وثيقة حتى آخر حياة الخليفة الذى اعتاد منذ تلك الحادثة أن يكرّم البابا المرقسى كل الإكرام . وهكذا كان الأنبا ميخائيل الرابع أول بابا اسكندرى ذهب إلى أثيوبيا منذ أن تأسست الكنيسة الاثيوبية فى عهد الأنبا أثناسيوس الوسولى .

ولم يكد البابا الاسكندرى يصل إلى القاهرة حتى جاء على أثرة مندوب من ملك أثيوبيا يرجو منه رسامة مطران لأن مطرانهم كان قد تنيح بسلام .

ولقد بعث الوزير الأفضل (وزير الخليفة المستعلى) إلى الأنبا ميخائيل يرجو منه المبادرة إلى رسامة المطران حتى يعود مع رسول الملك . ورأى البابا الاسكندرى أن هـذا الطلب معقول ولو أنه مشوب بالخطأ لأن التريث فيـه ضرورة لحسن الاختيار .

وعاد الرسول الأثيوبى ومعه المطران . إلا أن المثل القائل بأن فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة قد ثبتت صحته فى هذا الاختيار إذ لم تمض غير مدة وجيزة حتى وصل رسول ثان إلى القاهرة يشتكى المطران للأنبا ميخائيل الرابع الذى استدعى المطران فوراً وحقق معه . ولما عرف أن شكوى الأثيوبيين حقيقة واقعة جرد المطران من رتبته الأسقفية وأعاده إلى ديره . ثم انتقى راهباً آخر فى تريث وبعد أن تشاور مع رؤساء الأديرة المختلفـة ، ورسم الراهب الجديد وأرسله إلى أثيوبيا . وكان الاختيار الثانى اختياراً موفقاً إذ أثبت المطران جدارته لرعاية الشعب الأثيوبى الذى فرح به وأكرمه .

ومما يؤسف له أن السلام الذى كان مرفرفاً على ربوع البـلاد قد شابه تفشى الطاعون تفشياً مروعا ـ فراح ضحيته عدد كبير من المصريين . ولما كان الأنبا ميخائيل الرابع راعياً ساهراً لم يقعده الطاعون عن تأدية واجبه الرعوى . فكان يتنقل من مدينـة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى ليزور العائلات المنكوبة يواسيها ويشدد قلوب الباقين من أفرادها . وقد أدى هـذا التفانى إلى إصابة البابا الاسكندرى بهذا الداء الوبيل . ولاحظ أخصاؤه ذات يوم بوادر المرض عليه وهو يعتلى ظهر دابته فى جولته بين العـائلات فحملوه على الفور الى كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة فى مصر القديمـة حيث انتقل الى بيعة الأبكار فى اليوم التالى . فبكاه مسلمو مصر قبل مسيحييها لما أداه من خدمات عادت على البلاد بالخير الوفير .

بطلان من أبطال الكنيسة القبطية

▲▲▲

من بين المئات الذين كتبوا عن الكنيسة المصرية وأخبارها الأماجد راهب هو القس أفرام الديراني أحد مديري الرهبانية الحلبية المارونية اللبنانية. وقد استعرض هذا الراهب حياة معلمي المسكونة في كتاب دعاه « العيشة الهنية في الحياة النسكية » . وفي هذا الكتاب ذكر آباء الصحارى المصريين وما تركوه من أثر في العالم بأسره . وبدأ الحديث عن كوكب البرية المتألق الأنبا أنطونيوس أبي الرهبان فذكر كيف كان الجميع يتسارعون إليه ليستمعوا إلى تعاليمه التي تروي ظمأ نفوسهم العطشى ، وكيف أن أعاظم الرجال كانوا ضمن المتسابقين إلى الارتشاف من منهله العذب . ثم تحدث عن حامي الإيمان القويم الأنبا اثناسيوس الرسولي الذي كان ضمن من تتلمذوا للقديس أنطونيوس فقال : إن أعظم رجال ذلك العصر ـ الذي كان يأتي غالبا للاستماع إلى إرشاد الناسك ونصائحه ـ كان القديس أثناسيوس الذي اشتهر في الكنيسة بشجاعته الرسولية وثباته في الدفاع عن الإيمان الحقيق ، والذي احتمل أشد الاضطهادات وخلف من بعده المؤلفات العديدة . وكم قضى هذان القديسان من الأوقات السعيدة وهما يجتمعان معاً ! ومن منهما كان الأدهش والأعجب ؟ هل الذي ترك كل شيء وأصبح فقيراً بإرادته حبا في يسوع المسيح أم الذي من أجل ألوهية الكلمة الأزلية قد احتمل مراراً عديدة حجز الأموال وشدائد النفي وكان كل حين عرضة للقتل ؟ .

ولقد لخص هذا المؤلف بطولة هذين القديسين في هذا السؤال الموجز الذي وهب كل منهما حياته بجملتها للفادي الحبيب . ومن أجمل ما قرأت عن

الصلة الوثيقة التى ربطت بين الأنبا أنطونيوس وبين الأنبا اثناسيوس ما جاء فى كتاب الأبيه باربيه الفرنسى الذى قارن بين توثب الشاب اثناسيوس ومايجيش فى نفسه من تطلع وبين حكمة الشيخ أنطونيوس الذى حنكته التجارب وصقلته السنون فأصبح كالطود الراسخ . واسترسل الأبيه باربيه فوصف كيف كان أثناسيوس يذهب عند غروب الشمس إلى أقرب عين للماء فيملأ جرته ويعود بها ليغسل يدى معلمه ورجليه ثم يغتسل هو نفسه ، وبعد أن يأكل الاثنان خبزتهما اليابسة ويشربان قليلا من الماء يقرأ أثناسيوس لمعلمه ما خطه من تعاليم ، هى الآن كنوز لا تقوّم بالمال للعالم بأسره . وكان أنطونيوس يصغى بانتباه تام إلى ما كتبه تلميذه ويشعر بغبطة لا مزيد عليها لتلك النار المتأججة المندلعة من تلميذه الشاب . وهكذا قامت بين أنطونيوس وأثناسيوس محبة روحية عميقة كانت أشبه بالدرع الواقى لبطل الأرثوذكسية فيما بعد لأنها كانت مبعث القوة والأمل المتجدد كلما ادلهمت الأيام وسدت حوله المسالك .

ولقد جعل أثناسيوس من حياة معلمه أنطونيوس النور الهادى لآلاف من الناس - بل للملايين منهم لأنه استجاب لرغبة بعض المتعطشين إلى المعرفة فكتب لهم تاريخ الانبا أنطونيوس . وفى هذا الصدد أورد القس أفرام الديرانى خلاصة لرسالة وجهها القديس أثناسيوس إلى نساكه الذين كانوا مقيمين فى البلدان السحيقة فقال على لسان بطل الارثوذكسية مانصه : « إنها لحرب مقدسة تلك التى شرعتم فيها مباراة لنساك مصر فى الفضيلة . ونعم اجتهادكم فى إحراز قصب السبق . ها قد أنشئت بينكم شركات عديدة اشتهرت بحفظ القوانين . ولا ريب فى أن الجميع يستحسنون رغبتكم التى عاينتمونى بها والله يستجيب صلواتكم . هذا - ولما رأيتكم تطلبون إلىّ بإلحاح أن أضع لكم تاريخ الطوباوى أنطونيوس ، وعلمت أنكم ترغبون أن تعلموا هذه الحياة العجيبة

من بدايتها الى نهايتها ، وإذا كان كل ما يقال عنه حقيقياً ومن شأنه أن يساعدكم لتتدرجوا فى مراقى الكمال باقتفائكم آثاره ، قد بدأت بفرح عظيم فى عمل ما أمرتنى به محبتكم . فهذا التأليف الذى طلبتموه منى يأتى بفائدة كبرى لى ولكم أما أنا فيوقفنى على أعمال هذا القديس ، أما أنتم فيحملكم العجب على الاقتداء به ، وأما النساك فيعرفون طريق الكمال الحقيقى إن عرفوا كنه حياة القديس أنطونيوس . فلا تخشوا إذن ، وإياكم أن لا تصدقوا ما يقال لكم عنه . بل تأكدوا أنهم لم ينشروا إلا النذر اليسير من فضائله السامية وكيف يمكنهم أن يعلموكم بكل تدقيق كل أخباره ؟ لأن كل ما عزمت على نشره فى هذا الكتاب ارضاء لرغبتكم ليس إلا بالمختصر الوجيز لأعماله . وانكم تفعلون حسناً إن استعلمتم عنه بأنفسكم أولئك الذين تغتنمون الفرصة لرؤيتهم . وعلى افتراض أن كل واحد يخبركم كل ما يعلمه فقد يصعب جداً تأليف قصة تطابق الموضوع. ولما استلمت تحاريركم عزمت على استقدام بعض النساك ، وبالأخص أولئك الذين زاروا مراراً القديس أنطونيوس لكى استفيد منهم بعض الإفادة فأقص عليكم ما علمت . ولكنى لما وجدت زمن السفر فى البحر قد مضى وعلمت أن الذى جاءنى بتحاريركم كان يود الرجوع مسرعا إليكم بادرت إلى إجابة رغبة تقواكم بأن كتبت إليكم ما عرفته بنفسى كرجل قد شاهد مراراً القديس وما حدثنى به ناسك كان قد قضى زمناً طويلا معه وكان قد اعتاد أن يسكب على يديه الماء ليغسلهما . وقد اعتنيت بذكر الحقيقة فى كل التفاصيل وأرى من واجباتى أن أعلمكم بالأمر حتى إذا سمع أحد كلاماً عن انطونيوس يجىء فيه ذكر أشياء أعجب من التى عزمت على نشرها هنا لا يشوبه ريب فى صحة هذه المعجزات الباهرة حتى إذا سمع - لاسمح الله - بأشياء لا تليق به لا يحمله ذلك على احتقار قديس عظيم مثله » .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الكتاب الذى وضعه الأنبا أثناسيوس عن معلمه الأنبا أنطونيوس كان له أبلغ الأثر فى النفوس . وأبرز شخصية تأثرت بحياة أبى الرهبان هى شخصية القديس أغسطينوس، فقد ذكر هذا القديس كيف أن صديقاً جاءه مرة بهذا الكتاب فلما تصفحه قامت فى داخله عاصفة هوجاء بين رغبته العنيفة فى أن يتبع طريق القداسة وبين ما فى العالم من روابط وإغراءات. ولقد بلغت حدة العاصفة فى نفس القديس أوغسطينوس مبلغاً جعلته ينتحى ناحيه بعيدة من حديقة المنزل الذى كان مقيما به يومذاك ويسقط على ركبتيه تحت شجرة ويبكى بدموع غزيرة، ويستمر فى البكاء والضراعة إلى أن تغلبت قوى الخير داخله وانتصرت رغبته فى أن يكرس حياته لله . وهكذا اكتسب أثناسيوس بما كتبه عن أنطونيوس قديساً من أعظم القديسين ومعلماً من فطاحل العلماء .

ولئن حلا لنا أن نذكر هذا النصر الذى أحرزه بطلا الكنيسة القبطية فى اجتذاب أوغسطينوس فلا يجدر بنا أن ننسى المئات من الناس الذين استهوتهم القداسة وسطع عليهم نور الحق خلال هذا الكتاب العجيب الذى خطه أثناسيوس عن معلمه أنطونيوس ـ لأن لكل نفس قيمتها أمام الآب السماوى .

وإن النور الذى سطع من حياة هذين البطلين لا يزال ساطعاً براقاً للآن ـ فحرى بنا أن نجعله ينير عيوننا ويبدد ما حولنا من ظلمات ويؤهلنا نحن أيضاً لأن نسير فى طريق الحق ونسعى نحو الكمال الروحى .



بطل

كلمة تحليلية رائعة سطرتها الكاتبة الوفية الأستاذة ايريس حبيب المصرى بدماء قلبها لا بمداد قلمها . قدمت لنا فيها صورة حية ناطقة لبطل الكنيسة المتنيح الأنبا كيرلس مطران الحبشة

إنه يحق لنا فى هذه الأيام حين يلمع أمامنا قبس من النور أن نهتدى بهذا القبس ونسير وراءه كى نحتفظ بثقتنا فى أنفسنا وفى مستقبل كنيستنا . فالكثير من الأقباط الآن متشائمون متطيرون يطغى عليهم اليأس فى أغاب الأحيان فيخيل إليهم أن الظلام دامس لا بصيص من النور فيه . ولكن على الرغم من أن الظلام غالب إلا أن هناك أشعة تبدو هنا وهناك وتفرح قلب المتفائلين فتجعلهم يهتفون بأن كل ليل لابد أن يعقبه نهار وكل ظلمة لابد أن يبددها النور . ومثل هذه الأشعة الهادية وسط ظلام القرن العشرين أنبا كيرلس مطران الامبراطورية الاثيوبية . فنحن نقرأ كيف أن أثناسيوس الرسولى وقف أمام العالم من غير تراجع ونقرأ عن كيرلس عمود الدين وعن ديسقوروس فنتأوه قائلين : « أنى لنا مثل هؤلاء الأبطال اليوم » غير عالمين أن الكنيسة التى تفاخر بهم تخرج فى كل جيل أبطالا . هذه الكنيسة التى هى كنيستنا قد أنجبت فى عصرنا بطلا شجاعاً ثابتاً عرف كيف يصمد فى وجه الظلم ويثبت أمام العاصفة ـ ثم عرف بعد ذلك كيف يثبت أمام الجحود ونكران الجميل لأنه على حد قوله : « إحنا بنعمل للناس ولا لربنا » ؟

فمن كان هذا البطل المجهول بل هذا الشهيد المفترى عليه ؟

ان أنبا كيرلس قد ترهب بدير أنبا أنطونيوس فتعلم المبدأ الرهيب الذى وضعه أبو الرهبان قاعدة لمن يبغي حياة الرهبنة ـ ألا وهو مبدأ الصمت .

فأتقن هذا المبدأ كما أتقن كل مبادىء الرهبنة من زهد وعفة وتقشف وابتعاد عن زخرف الحياة وريائها وتملقها . فكانت حياته حتى آخر لحظة حياة الراهب الحق الذى باع كل شىء واشترى المسيح .

وكان أول ما عمله أنبا يؤنس حين ارتقى الكرسى البطريركى رسامة أنبا كيرلس مطراناً على اثيوبيا . ويومذاك بكى أنبا كيرلس بكاء مراً لأنه قال إنه غير مستحق لهذه الرتبة . بكى وبلل الأرض بدموعه كأنما أحست روحه مقدماً بكل ما سيصيبه فى هذه الدرجة الكهنوتية العظمى من آلام وتجارب . كان يبكى لفرط تواضعه وظلت دموعه تنسكب حتى آخر لحظة توجعا على الكنيسة . ولقد رسم المرتل داود قديماً صورة تنطبق تماماً على أنبا كيرلس قال : « طوبى للرجل الذى نصرته من عندك يارب . رتب مصاعد فى قلبه فى وادى البكاء » . ومن العجيب أن يعيش فى وادى البكاء رجل نصرته من عند الرب - ولكن هذه الحقيقة أثبتتها الأجيال المتعاقبة .

وهذه الدرجة الكهنوتية العظمى يرى السطحيون ما يحف بها من جاه ونفوذ غير مدركين أنها مسئولية رهيبة . وما أبعد ادراكهم عن ادراك تلك السيدة المسيحية الحقة التى كانت أما لمكاريوس الثانى (البابا التاسع والخمسين). فإنها حين قابلت ابنها لأول مرة بعد ارتقائه الكرسى البطريركى بكت بكاء مراً ، وظلت تبكى حتى وصل إليها ابنها يسألها : « كيف تبكين بدلا من أن تجرى للترحيب بى ؟ ألست فرحة لأنك صرت أماً للبطريرك ؟ » أجابته : « لقد كنت بالأمس مسئولا عن نفسك فقط . أما الآن فأنت مسئول عن الشعب كله . لذلك أبكى عليك مذكرة نفسى بتلك الســـاعة العصيبة التى سيحاسبك الله فيها عن كل شخص من رعيتك » . فالكهنوت مسئولية عظمى . وقديما قال الله لهرون وأولاده : « تحملون عبء كهنوتكم » . وعلى حد

قول أنبا كيرلس نفسه « الناس شايفين المطران قاعد على كرسى مذهب عن يمين الامبراطور - شايفين إيه إللى وراه ؟ » وهذا بالضبط حالنا . فنحن نرى المظاهر فنغتر بها وقد نحسد صاحبها عليها لأننا نجهل ما وراء هذه المظاهر من أعباء ومسئولية . ولئن كان الكهنوت عبئاً فرئاسة الكهنوت عبء أكبر من غير شك . والكاهن الذى يدرك أن عليه رسالة ائتمنه الله عليها هو من غير شك بركة عظيمة للكنيسة . والكنيسة كلها قد شملتها بركة أنبا كيرلس على الرغم من انزوائه ومن صمته . ذلك لأنه مهما حاول الناس تكتم الخير فلابد من أن تنتشر أخباره . فقد يجلس الراهب فى صومعته لا يعرف مكانه إلا القلائل - يجلس فى سكون وهدوء كأشعة الشمس . ولكن أعمال الخير والمحبة التى عملها تمتد إلى الآخرين فيتأثرون بها ، حتى وإن كانوا يجهلون مصدرها . وهكذا كان أنبا كيرلس شعاعاً من النور فى حياة عدد عديد من الناس حين كان معهم على الأرض - أما نوره بعد انتقاله فسيزداد إشعاعاً وسيصل حتى إلى الذين ضايقوه وأهانوه .

▲▲▲

وسافر أنبا كيرلس حيث كان موضع الحفاوة والتبجيل . لأن الأحباش حتى فى هذا العصر يدينون بالولاء التام للرئيس الدينى الأعلى الذى يقولون عنه (أبونا) فقط . وقد بلغ تبجيلهم له إلى حد أنه حين كان يركب القطار من بلد إلى آخر كانوا يقبلون القضيب الذى مر عليه القطار !

ثم نودى بهيلاسلاسى امبراطوراً - وأقيمت الحفلات للتتويج - فكان أنبا كيرلس هو الذى وضع التاج على رأس الامبراطور ، وظهرت يومذاك بوادر الغيرة والمطامع وأراد بعض الغرباء التدخل فى مراسيم التتويج .

فظهرت الحكمة القبطية القديمة فى شخص أنبا كيرلس الذى تمكن فى هدوء ووقار من التغلب على كل ما بدا من الأغراض .

▲▲▲

وقامت الحرب الإيطالية الحبشية ، واشتد الضغط الإيطالى واقترب من العاصمة . فرأى الامبراطور أن سلامته وسلامة عائلته تقتضى مغادرته للبلاد. وكان آخر شىء قام به زيارة « أبيه » ليطلب إليه أن يبقى فى أديس أبابا ليذود عن الرعية فوعده أنبا كيرلس بالبقاء .

ثم دخل الإيطاليون أديس أبابا فخطر ببالهم أن يكتسبوا أنبا كيرلس إلى جانبهم لعلمهم بما له من نفوذ على القلوب . ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن هــــذا الرجل قد صيغ فى قالب أثناسيوس الرسولى وكيرلس عمود الدين وأمثالهما ـ وأنه متمم لتلك السلسلة المجيدة : سلسلة الشهداء الذين استهانوا بكل شدة وكل عذاب ، ولأنهم جهلوا هذه الحقيقة بدأوا محاولاتهم . فحاولوا فى بادىء الأمر أن يغروه بالمال والجاه . قالوا له : « سنعطيك قصراً منيفاً وخدماً وحشما وحرساً خاصاً وأموالا طائلة » . أجابهم: « إنى راهب يكفينى هذا الثوب ويكفينى النوم على الأرض تحت زرقة السماء » .

ـــ « إن مصر ليس فيها إلا حوالى مليونين من الأقباط . أما هنا فالمسيحون ينيفون على العشرة ملايين . فاستقل ببلدك ورعيتك . واستأثر بالنفوذ والسلطان هنا » .

ـــ لقد أخذت رتبتى من بطريرك الاسكندرية ، ولا يمكننى أن أخون عهده . . . وعبثاً حاولوا استمالته بشتى الوعود .

فلما لم يجدِ الإغراء لجأوا إلى التهديد قالوا : « ألست تدرى إننا أصحاب

السلطان وأن فى استطاعتنا قتلك ؟ » أجاب « أعرف ذلك جيداً . ولكن سيدى قال لنا ألا نخاف من الذين يقتلون الجسد . فأنتم تستطيعون قتل جسدى - أما روحى فملك للمسيح » .

وأعيتهم الحيل - فلا الوعيد أفاد ولا التهديد أثمر . وعندها جعلوه يذهب إلى روما . وفى روما أروه « جميع ممالك المسكونة ومجدها » - فأنزلوه فى جناح خاص فى أفخم فندق . ووضعوا تحت تصرفه طبيباً خاصاً وأستاذاً من أساتذة التاريخ وسيارة ضخمة ، وأروه معالم روما التاريخية ثم مروا به على كل المنشآت الحديثة والمشروعات العظيمة . وفوق هذا كله جعلوه يحضر المجلس الفاشستى الأعلى - فمر بين صفين من الحرس شاكين السلاح . وعزفت له الموسيقى العسكرية . وبعد أن ألقيت الخطب طلب إليه موسولينى أن يعلن استقلاله عن كنيسة مار مرقس . وعندها أجابه بكل هدوء ووقار : « يجب علىّ أن استأذن أبى الذى هو خليفة مار مرقس » .

وهكذا عاد من روما منتصراً - فلم يحن رأسه ولم يخفض بصره أمام عظمة العالم وسلطانه ، ولكنه دفع ثمن هذا الانتصار - دفع ثمنا باهظا جداً . لأن الإيطاليين رفضوا السماح له بالعودة إلى أديس أبابا . فبقى فى مصر . بقى بين أهله وعشيرته فعلم بالخبرة أن الذى يثبت إلى المنتهى لا يلقى الاضطهاد من الخصوم فقط بل يجده من أهل بيته كذلك . لأن الأقباط الذين كان يحق لهم أن يلاقوه بالترحاب بل ويفاخرون به أعطوه ظهورهم وتنكروا له وكتبوا ضده المقالات . فماذا فعل إزاء هذا الجحود ؟ صمت . وظل صامتا مدى حياته . لم يدافع عن نفسه ولم يخبر إلا الأخصاء بما حدث - وحتى هؤلاء أخبرهم بعد الحاح منهم وبعد أن وعدوه بالصمت . . كان صمته يضايق الصحفيين وغيرهم حتى أن البعض وصفه بأنه « أبو الهول » ، ولكنه استمر فى صمته .

لأن تصرفه كان واضحا كالشمس : إنه ذهب إلى روما وعاد منها منفياً فلماذا هذا النفى وما معناه ؟ أليس معناه انه لم يتفق مع أصحاب الحكم ؟ إذن فعمله يتكلم صراحة ولا يحتاج إلى بيان . وعلى ذلك صمت . ولم يجب على كل الإهانات والطعن بكلمة . وكان فى أثناء ذلك لا يواجه الجحود والإهانة من جانب قومه فقط بل كان يواجه الإغراء الملح من جانب الإيطاليين لأنهم كانوا يبعثون إليه يوميا بأتومبيل ـ ثم يصعد إليه إيطالى لبق يطلب إليه فى أدب ورشاقة إن كان فى إمكانه تقديم أية خدمة واضعا نفسه والسيارة التى جاء فيها تحت تصرف صاحب النيافة . ولكن « أبا الهول » الذى صمد على الأيام ظل صامداً لا يتحرك ولا يتراجع . واستمر الإيطاليون سنة بأكملها يحاولون إغراءه يومياً ـ سلموا بعدها أسلحتهم وتركوا المنتصر المغلوب وحده .

▲▲▲

وانقضت السنوات وعاد الامبراطور إلى الحبشة . ولم يلبث أن أرسل فى طلب المطران وعندئذ جاءه الكبراء والوزراء يسألون عنه قبيل سفره فقابلهم بصمته ووقاره المعهودين .

وبدأت العلاقات تتوتر بين الكنيسة الحبشية وبين أمها القبطية لسببين :

(أولا) لتدخل السياسة فى الأمور الدينية .

(ثانيا) الدسائس التى كان يحبكها الأقباط بعضهم لبعض . فقضت السياسة والدسائس على العلاقة التى ظلت قائمة ستة عشر قرنا ـ وضربت بسهم واحد قلب الكنيسة وقلب ابنها الذى دافع عنها ووقف كالصخرة أمام مهاجميها . وما كان ليعجز عن الدفاع عن نفسه وهو البطل الذى لم يخش سطوة المستبدين

ولكن السهم الذى أصابه فى الصميم كان مصوبا إليه من « أهل بيته » فكان لسان حاله تلك الأبيات :

تخذتكمو دروعا واقيات فكنتوها ولكن للأعادى

وخلتكمو سهاما صائبات فكنتوها ولكن فى فؤادى

وعلى ذلك تقبل سهام الأحبة فى صمته المعتاد ، وعاد إلى مصر حيث ظل منفيا من جديد .

وتوالت عليه الأمراض الجسمية فى أعقاب الأوجاع النفسية ـ ولكنه لم يشك ، كان المرض ينتابه المرة بعد المرة ـ ثم يتعافى . وفى مرضه الأخير الذى لم يستغرق سوى أيام قلائل لم يدر فى خلد واحد من أخصائه بأن النهاية قريبة . لأنه كان « تعبان » لاغير ، وفى لحظة كلمح البصر انتقل من هذا العالم الذى لاقى فيه الشىء الكثير من الآلام والأوجاع إلى عالم النور والراحة ليأخذ من أبيه الذى يرى فى الخفاء جزاءه علانية وليستمتع بالنور الإلهى مع القديسين والأبرار . بركة صلاته فلتكن مع جميعنا — آمين ؟



صورة مضيئة من تاريخنا

▲▲▲

فى سنة ٦٨١ م انتخب الشعب القبطى الأنبا إيساك البابا الـ ٤١ ، وحياة هذا البابا الأسكندرى فيها الشىء الكثير من النور الذى نفتقر اليه فى وقتنا الحاضر .

ولقد التحق إيساك فى صباه بدير الأنبا مكارى الكبير فى برية شيهيت وكان كغيره من شباب ذلك العصر يقصدون إلى الأديرة لا للتعبد والتقشف فحسب بل لارتشاف العلم والدين من منهله العذب أيضاً .

ويتضح من سيرة إيساك أن الكنيسة المصرية كانت تهتم اهتماما خاصاً بالعلوم المتنوعة ـ دينية كانت أم مدنية ، وأن ما كانت تقدمه من علومه كان يؤهل أبناءها لأسمى المناصب الكنسية والحكومية ويعدهم أيضاً للتضلع فى الطب والقانون وغيرهما من المهن العلمية .

وكانت المدارس فى ذلك الوقت نامية كثيرة العدد . ولم تكن الدراسة فيها قاصرة على اللغة القبطية بل تضمنت اللغات الهيروغليفية والسريانية واليونانية . وكان أساتذة هذه المدارس يهتمون بنسخ الكتب فى جميع هذه اللغات حتى لقد كان للنساخ منزلة خاصة لدى الجميع مما جعل لإيساك مركزاً ممتازاً بين أقرانه لكونه كاتباً بارعاً وناسخا يجيد فنه .

وبعد أن قضى إيساك فترة من الزمن كراهب بسيط يجد فى طلب العلم ويصرف وقته فى الكتابة والنساخة انتخبه الرهبان رئيسا عليهم، إذ كان رئيسهم قد انتقل إلى بيعة الأبكار . وحين وجد نفسه أبا روحيا لعدد عديد

من الرهبان ازداد إدراكا للمسئولية الملقاة عليه فاهتم بتقديم كافة العلوم إلى رهبانه وبالسهر على إرشادهم فى سبيل بلوغ الكمال المسيحى . وكان يستعين بجمال الطبيعة ليقربهم إلى الله فكان يقطف بنفسه باقات الزهور ويزين بها موائد الطعام ويلفت نظرهم إلى ما فيها من تنوع الألوان والأشكال .

وحدث أن احتاج الأنبا يؤنس (البابا الأسكندرى الـ ٤٠) إلى سكرتير فوقع اختياره على إيساك . وما أن مثل هذا الراهب بين يدى باباه حتى طلب اليه أن يكتب له خطابا خاصا . وكان إيساك يتوق إلى العودة للدير فكتب خطابا ركيكا . ولكن البابا الأسكندرى ـ بما أوتى من حكمة ـ عرف الباعث على هذا التقصير فقال لإيساك : « ستبقى سكرتيراً لى ولو عجزت عن تحرير الخطابات » . وبدأ الألم على وجه السكرتير فقال له الأنبا يؤنس: « إنى أعدك بأن أعيدك إلى الدير بعد أن تنجز الأعمال التى أطلبها منك » . وقد نفذ البابا الأسكندرى وعده .

على أن إيساك لم ينعم بالبقاء فى الدير أكثر من بضعة شهور لأن الأنبا يؤنس مرض وأحس بأن ساعته قد دنت فابتهل إلى الله أن يعلن له من سيخلفه على السدة المرقسية فرأى ملاك الرب يشير له إلى إيساك فبعث اليه برسول استدعاه ثانية . ولم يكن أمام الراهب إلا الطاعة لأمر البابا ـ ومن ثم عينه الأنبا يؤنس سكرتيراً خاصا له .

وبعد مدة وجيزة انطلق الأنبا يؤنس إلى عالم الخلود . وكان فى ذلك الوقت شماس اسمه جاورجيوس يعيش فى الفسطاط دفعه غروره إلى الزعم بأنه خير من يخلف الأنبا يؤنس فلجأ إلى التملق واستخدام العبارات المعسولة للوصول إلى غايته واستطاع بذلك أن يستميل إلى جانبه نفراً من الأساقفة .

وفى تلك الأثناء اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة أبى سرجة ببابلون

للتشاور فى مَن يخلف باباهم الراحل. وأخذوا فى الصلاة، وكان إيساك منعزلا فى زاوية بتلك الكنيسة. وحدث أثناء الصلاة أن انكسر القنديل المعلق فى تلك الزاوية وانسكب ما فيه من زيت فوق رأس إيساك، وحالما رأى المجتمعون ما حدث هتفوا بصوت واحد: «أكسيوس - إن إيساك مستحق لكرامة البابوية الأسكندرية فقد نزل عليه الدهن الذى نزل على رأس هرون الكاهن».

وفى اليوم التالى قصد الأساقفة والأراخنة إلى دار الولاية وأخبروا عبد العزيز والى مصر بما استقر رأيهم عليه. وكان الموالون للشماس جاورجيوس المغتر قد غالوا فى تمجيده لعبد العزيز فطلب من هذا الوفد احضاره اليه. فلما مثل جاورجيوس بين يدى عبد العزيز راقه منظره وحسن هندامه فقال للأساقفة: «كيف تفضلون رجلا ليست عليه مسحة من الوجاهة على رجل غاية فى الوجاهة؟» فأجابوه: «إن الله الذى يصطفى أنبياءه قد اصطفاه وهو ينظر إلى القلب لا إلى الوجاهة الخارجية». فأمن عبد العزيز على رأيهم وهنأ إيساك على ثقة الشعب به. وهكذا أصبح البابا الحادى والأربعون.

وكان فى ديوان عبد العزيز كاتب قبطى اسمه أثناسيوس أغواه الشيطان فأنقلب ضد باباه وأخذ يروج ضده الاشاعات. وحدث بعد ذلك أن أصيب ابن أثناسيوس بمرض عضال كاد يودى بحياته. فأشار عليه بعض المقربين اليه بأن يسترضى الأنبا إيساك غير أنه أبدى خوفه من عدم استجابة البابا لدعواه فأفهمه أصدقاؤه بأن البابا فوق هذه الصغائر وأنه لا يضمر لأبنائه إلا كل خير ولو أساءوا اليه. فلم يتردد أثناسيوس فى الذهاب إلى الدار البابوية ليرجو من الأنبا إيساك أن يصلى لأجل ابنه. وفرح البابا لمجىء ابنه اليه فلم يكتف بتلبية الرجاء للصلاة بل ذهب مع أثناسيوس إلى منزله، وصلى إلى جانب سرير المريض ذارفاً الدموع مستشفعا مسترحما فلبى الله صلاته وأنعم بالشفاء على

المريض . فنــــدم الــكاتب أثناسيوس على ما فرط منه من إساءة إلى البابا الأسكــندرى . وانتهز هذا البابا الفرصة بأن طلب إلى أثناسيوس أن يرمم كنيسة الانجيليين الأربعة فى الأسكندرية . فلبى هذا الطلب ولم يرمم الـكنيسة فقط بل زينها بأبدع الرسوم حتى جعل منها تحفة رائعة تثير الإعجاب .

ولقد حدث أن دعا عبد العزيز والى مصر الأنبا إيساك ليقضى فى قصره بحلوان بضعة أيام . فلبى الدعوة . وفى ثانى أيام هذه الضيافة أنبأت زوجة عبد العزيز زوجها بأن رائحة البخور تنبعث من الغرفة التى تأوى ذلك البابا الأسكــندرى فأجابها بأن الرجل من رجال الله فلا غرابة فى أن تعبق الغرفة التى يأوى اليها برائحة البخور .

وقد قضى الأنبا إيساك أيام حبريته فى تعليم شعبه وتثبيته على الإيمان القويم جريا على التقاليد التى وضعها أعاظم الباباوات الأسكــندريين ومعلمو المدرسة التى كانت أشبه بالفنار القائم عند مدخل مدينة الأسكــندرية العظمى، وكانت آخر وصية استودعها هذا البابا العظيم شعبه هى أن يحبوا بعضهم بعضا لأن المحبة هى رباط الـكمال .



درس فى المعمودية المسيحية

يلقيه علينا آباؤنا

▲▲▲

كلنا يعرف أن العصور الأولى للمسيحية فى مصر - أيام الحكم الرومانى - اتصفت بما شنه هؤلاء الرومان من اضطهاد . وظلت نار هذه الاضطهادات تتقد وتخبو حتى لقد توالى على آبائنا ثلاثة عشر اضطهاداً . وإلى جانب البطولة النادرة التى أبداها آباؤنا والتى جعلت ترتوليان (كاهن من قرطاجة معاصر لبعض هذه الاضطهادات) يقول : انه لو وضع شهداء العالم فى كفة من الميزان وشهداء مصر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة شهداء مصر - على الرغم من هذا فقد حدث أن طغى الخوف على بعض الأفراد وجعلهم ينكرون الفادى الحبيب أمام أهوال العذاب ، وحين كانت تنتهى هذه الأهوال كان يستولى الندم على بعض هؤلاء الجاحدين فيتوبون توبة صادقة قلبية ويسترحمون باباواتهم وأساقفتهم ليقبلوهم فى شركة الكنيسة من جديد. وحين كان يتحقق البابا الاسكندرى من صدق توبتهم كان يعلن قبولهم .

ولقد أعلن باباوات الاسكندرية بوجوب قبول التائبين من غير اعادة تعميدهم لأن المعمودية واحدة لا تعاد . ومما يجب ذكره أن مجمع نيقية العظيم - وهو المجمع المسكونى الأول الذى انعقد بدعوة من الامبراطور قسطنطين الكبير سنة ٣٢٥ م غ - قد أقر خلفاء مار مرقس على مبدأهم هذا وأعلن أن المعمودية لا تعاد .

ومع اصرار آباء الاسكندرية على عدم تكرار المعمودية فقد وضعوا

قوانين لقبول التائبين ثم رحبوا بهم بعد ذلك فى شركة الكنيسة الجامعة . وإليكم مثلا من أروع الأمثلة قدمها لنا الأنبا ديونيسيوس البابا الاسكندرى العظيم ومن أئمة الكنيسة الجامعة فى المسكونة . فإن الأنبا ديونيسيوس كان قد عرف مرارة النفى فى الاضطهاد الذى اثاره الامبراطور ديسيوس . فلما خفت وطأة الاضطهاد وسمح له الوالى بالعودة من منفاه إلى عاصمة كرسيه بعث بخطاب إلى فابيوس أسقف انطاكية يؤكد له فيه أهمية الرضى عن التائبين . وبعد أن وصف بطولة الشهداء وعظمتهم الروحية وصفاً كله اعجاب ومحبة قال : كان فى مدينتنا شيخ اسمه سيرابيون مشهوداً له بالتقوى . وحين رأى الأهوال يصبها الحكام على رؤوس الشهداء ارتاع وانكر الإيمان . ولكنه ندم ندماً لا مزيد عليه حين استتب السلام، ورجا الكاهن أن يقبله فى الكنيسة عدة مرات ، غير أن الكاهن لم يستطع أن يقبله لأن القوانين الخاصة بقبول أمثاله لم تكن قد صدرت بعد . ومرض سرابيون ذات يوم مرضاً أفقده المقدرة على النطق ، وظل صامتاً أربعة أيام .

وفى اليوم الرابع تحسنت حالته قليلا فاستطاع أن يتكلم . وفى الحال نادى حفيده وقال له : إلى متى تحتجزونى ها هنا ؟ اسرع يابنى إلى الكاهن وارجوه الصفح عنى واستحضره معك .

وما أن انتهى من هذه الكلمات حتى فقد المقدرة على الكلام مرة أخرى . وجرى حفيده إلى الكنيسة . وكان الوقت ليلا ، كما أن الكاهن كان ملازما الفراش أيضا . وكنت قد اصدرت القوانين الخاصة بقبول التائبين ووجوب الصفح عنهم بعد ان يثبت صدقهم - خصوصا إن كانوا على وشك الانتقال من هذا العالم حتى يستطيعوا أن يرقدوا بسلام فلما وصل حفيد سرابيون إلى الكاهن المريض أعطاه سر الأفخارستيا فى حق ونصحه بوضعه فى فم جده مباشرة ثم وضع نقط من الماء وراءه .

وأسرع الحفيد فى تنفيذ [illegible] الكاهن وحالما وصل إلى البيت قال له سرابيون : أسرع يابنى واعمل ما أمرك به أبونا لكى أرحل بسلام ، ووضع الحفيد السر المقدس فى فم جده وأعطاه [illegible] من الماء . وما كاد الشيخ يبتلع ماء فمه حتى صعدت روحه إلى بارئها . أليس من الواضح أن الله حفظ حياة سرابيون ليمكنه من الحصول على الرضى الكنسى واستعادة سلامه النفسى وهدوء الضمير ؟ ألم يمنحه الرب هذه الفرصة لكى يتلقاه فى فردوسه ضمن من أرضوه ؟ لقد علمنا مخلصنا الصالح أن الله محبة وأنه يفرح بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة . فيجب علينا نحن الحاملين لواءه أن نعمل بتعاليمه الإلهية .

وكان خطاب الأنبا ديونيسيوس هذا استجابة منه لصرخة الكثيرين الذين غلبهم الضعف البشرى فخافوا من العذاب وبخروا للأوثان ثم بكوا واستغفروا وطلبوا الصفح والرضى راجين آباءهم أن يقبلوهم فى شركة الكنيسة الجامعة . أما المبدأ الذى سار عليه الأنبا ديونيسيوس وخلفاؤه من باباوات الاسكندرية الذين عاصروا الاضطهاد فقد أوضحوه بقولهم : « إننا نعيش تحت ناموس النعمة لا تحت قانون النقمة .

ومما يجدر ذكره أن القوانين الخاصة بقبول التائبين كانت تصدر عادة فى مثل هذه الأيام المباركة - عند اقتراب عيد القيامة المجيد . فقيامة رب المجد كانت توحى إلى الآباء بأنه إنما جاء وتألم وعرف شوكة الموت لكى يفتدينا ويقبل توبتنا . فكانت فرصة مواتية لهم يتنزونها لكى يعلنوا بدورهم قبولهم للتائبين ورضاهم عنهم والسماح لهم بالعودة إلى أحضان الكنيسة ، وهذه الروح هى الروح المسيحية الحقة التى تمسك بها آباؤنا فنالوا تقدير العالم بأسره وحظوا بلقب معلمى الكنيسة الجامعة .

ترقبوا . . .

صدور الكتب الآتية للناشر :

(١) أصول الدين وترياق عقول المؤمنين

تأليف القديس دانيال بن الخطاب

تنقيح القس مرقس شنودة

(٢) سلاح المؤمنين

تأليف الأنبا يوساب الأبح

تنقيح القس مرقس شنودة

(٣) كتاب الشهيد كبرياقس وأمه يوليطه

تأليف القس مرقس شنودة

[illegible]

يطلب من المكتبات المسيحية ومن

الناشر: القس مرقس شنودة

راعى الكنيسة القبطية بطهطا